روافد

العمران والبنيان في منظور الإسلام



إسهام
٤

د. مهندس يحي وزيري

روافد

العمران والبنيان في منظور الإسلام

دكتور مهندس

يحيى وزيري

مهندس يحيى وزيري:

من مواليد مصر، حاصل على ماجستير ودكتوراه في العمارة البيئية، ومهندس استشاري في مجال التصميم الداخلي، وخبير في مجال العمارة الإسلامية والبيئة ومباني المعوقين. له إنتاج علمي غزير، ومن مؤلفاته: «موسوعة عناصر العمارة الإسلامية»، و«المجتمع وثقافة العمران»، و«العمارة الإسلامية والبيئة» و«التطور العمراني والتراث المعماري لمدينة القدس الشريف»...

روافد

نهر متعدد ... متجدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة - رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 2487106 (+956) - فاكس: 2468134 (+965)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

الطبعة الأولى - دولة الكويت
يونيو 2008م / جمادى الآخرة 1429 هـ

الآراء المنشورة في هذه السلسلة لا تعبر بالضرورة عن رأي الوزارة

الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية
رقم الإيداع: 192 / 2008
ردمك: 978-99906-678-1-3

فهرس المحتويات

٧

تصدير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

استوعبت الرؤية الإسلامية مختلف مناحي حياة الإنسان المسلم ، في علاقته بنفسه وربه وأسرته ومحيطه القريب والبعيد،ومنحته «البوصلة» المنهجية والحضارية والسلوكية ليحقق إنسانيته العابدة في جو من الانسجام والتوازن والاعتدال .

ولعل من أبرز المجالات التي تعكس استيعاب الرؤية الإسلامية للأبعاد المختلفة للإنسان ، أنماط العمران والبنيان التي ابتدعها المسلم ، وسخرها لتؤدي له وظائف الراحة والسكينة والخصوصية والجمالية والحماية ، سواء في المسجد أو البيت أو المدينة أو السوق أو الحدائق والمنتزهات.

وكان مستنده الأساسي في كل ما أبدع وابتكر هدايات القرآن وسنة النبي عليه السلام، فحقق لنفسه أقصى درجات التوازن بين ضرورات الحياة وجمالياتها.

والأمر محتاج إلى دراسات تجلي أسرار ذلك الإنجاز الحضاري المتمثل في الاهتداء بقيم الإسلام وتوجيهاته في بناء مختلف مفردات العمران ، من البيت إلى المسجد إلى المدينة إلى الأسواق.. وغيرها.

وفي هذا السياق، فإن قطاع الشؤون الثقافية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت يجدد التذكير بأهمية البحث في الموضوع من خلال إقدامه على نشر كتاب «العمران والبنيان في منظور الإسلام» للمهندس د. يحيى وزيري، ضمن إصدارات مشروع « روافد « الهادف إلى إثراء الساحة الفكرية والأدبية والفنية، باعتبار أن البحث العلمي الرصين ، القائم على بصيرة من الدليل ، هو الكفيل بتأكيد الدور الحضاري للرؤية الإسلامية .

لقد حرص هذا الكتاب على أن يقوم بسياحة دلالية في آيات القرآن الكريم، ليبرز كيف أن الخطاب القرآني أشار إلى العديد من المفردات المتصلة بالعمران والبنيان، ووصفها وصفا دقيقا، وقدم معايير لتحقيق

التوازن بين البعد الوظيفي للبنيان والعمران والبعد الجمالي،وأنشأ موازين للوقاية من شرور الانحراف جهة قصد المتعة والعبث بعيدا عن هدايات الدين، وانسياقا وراء الممارسات الإعمارية الفاسدة .

وقد استنتج العديد من المعايير في هذا الصدد ، أهمها أن تقوى الله من مقاصد العمران، وأن التوازن مطلوب بين القيم الوظيفية والقيم الجمالية.

ومن أبرز ما توصل إليه الباحث ،بين يدي استقرائه للمفردات الدالة على العمران والبنيان في القرآن الكريم، أن الخطاب القرآني امتاز بشمولية حصر مختلف أنواع المباني المعمارية ، كما امتاز بدقة وصفها والتفريق بينها.

ولم يفت الباحث تفصيل القول في مميزات العمران والبنيان الإسلامي، إذ عقد مباحث لإبراز العديد من المميزات، وفي مقدمتها التوجه إلى القبلة، وتوافق العمران مع الظروف البيئية، ومراعاة الخصوصية، واستثمار العنصر الجمالي في البناء .

وقدم وقفات تطبيقية تدلل على تأثير الرؤية الإسلامية العمرانية على تصميم المباني، مثل تصميم المسجد والبيت والمدينة.

إن الخيط الناظم لكتاب:« العمران والبنيان في منظور الإسلام» يتمثل في توضيح العناصر الآتية:

-التذكير باعتناء الرؤية الإسلامية بموضوع البنيان والعمران رعاية لمقاصد الشريعة ممثلة في التيسير والسكينة والتقوى والجمال.

- لفت أنظار الدارسين للخطاب القرآني والمهندسين والمعماريين إلى أن القرآن الكريم احتوى على العديد من المفردات المتصلة بالبنيان والعمارة، وقدم فروقا دقيقة بينها ، وقدم « رؤية » متوازنة تجعل البنيان خادما للقيم الإنسانية وليس ميدانا للعبث والإفساد.

- إبراز مميزات العمارة والبنيان في المنظور الحضاري الإسلامي في مختلف العناصر والوحدات، في التوجه إلى القبلة، وفي اختيار مواقع البناء، وتوافقه مع الظروف البيئية، وفي استثمار عناصر الطبيعة ممثلة في المياه والأشجار والظلال، مع النهي عن الإسراف .

- التأكيد على أن الإسلام لايقتصر على المظهر المادي للبناء، بل يقدم إضاءات حول الغاية التي من أجلها يقوم الإنسان بإعمار الأرض، ، وهي غاية مرتبطة بإشعاع تعاليم الإسلام في المحيط العمراني الخاص والعام قصد إسهام عناصرها في صلاح الأفراد والجماعة والأمة نفسيا وبدنيا واجتماعيا ، صحيا وجماليا.

- تقديم ملامح تطبيقية تؤكد الصلة الوثيقة بين الرؤية الإسلامية والعمران الحضاري الذي تحقق عبر المسيرة الطويلة للإنسان داخل البيئة الإسلامية في شرق العالم وغربه.

والأمل معقود على أن تتضافر جهود الباحثين والمختصين للبحث في سبل إدراج هذه المعطيات الحضارية الدقيقة ضمن برامج تلفزية ومقررات دراسية ، تساعد عموم المطلعين على إدراك القيم الإيجابية في اعتماد الرؤية الإسلامية في تصميم المباني والمدن والأسوا ق والحدائق والمنتزهات .

ومن المفيد الإشارة إلى أن المؤلف يحيى وزيري اهتم، في كتابه، بإبراز الملامح العمرانية الإسلامية، لذا ، لم تتح له فرصة الالتفات إلى بعض القضايا المرتبطة بإشكالية العمارة الإسلامية في العصر الحديث، فهل يستحيل قيام علاقة بين العمارة الإسلامية والعمارة الحديثة؟ ما هي حدود الإفادة التي يمكن أن تقدمها العمارة الإسلامية للمدارس الحديثة في تصميم المباني؟ هل الدعوة إلى رعاية الرؤية الإسلامية في البنيان هي نفي للحداثة المهيمنة في العمران المعاصر؟

وغيرها من الأسئلة التي تؤكد أن الموضوع خصب وغني ومرشح لأن يثير العديد من الإشكالات والاستفسارات، وهذا مظنة حصول حوار علمي

بناء يقدم رؤى متنوعة تؤكد احتضان الحضارة الإسلامية لكل تنوع منتج وفعال.

ويسر قطاع الشؤون الثقافية أن يقدم هذا الكتاب إلى القراء الكرام ضمن الإصدار الرابع من « إسهام » ، الخاص بالشأن الفني والأدبي في مشروع «روافد».

والله الهادي إلى سوا ء السبيل.

تقديم

في إطار البحث ومحاولة إعادة المجتمعات العربية والإسلامية إلى هويتها الفكرية والثقافية، يصبح التفكير في أسلوب عمران وعمارة هذه المجتمعات فرضاً على كل متخصص أو مثقف، حيث يعتبر شكل وأسلوب العمران والتعمير أحد دعائم وركائز الثقافة المادية لهذه المجتمعات، والذى يحمل في طياته العديد من الثوابت والمضامين الفكرية والإبداعية الإسلامية، وهذه المضامين هي التي سبق وأن أسهمت في تشكيل المظهر المادى وجوهر الحياة في المدينة الإسلامية فى عصور ازدهار الحضارة الإسلامية.

لقد ناقشت العديد من الكتب والدراسات موضوع العمارة الإسلامية بأسلوب يدخل في نطاق تاريخ العمارة أو الدراسات الأثرية، وهذا شيء مطلوب، ولكن خصائص التفكير في جوانب العمارة والعمران من منظور إسلامي معاصر تحتاج إلى جانب تغطية الجوانب التاريخية والأثرية إلى ما هو أهم من ذلك، ونقصد تحديدا الضوابط والثوابت التي يجب أن يتأسس عليها الفكر المعماري الإسلامي، وهذه الضوابط تستمد أساسا من الكتاب والسنة، ولكننا آثرنا في هذه الدراسة أن يكون القرآن الكريم هو الأساس الذي ترتكز عليه مع الاستعانة في بعض المواضع ببعض الأحاديث النبوية الشريفة.

وبذلك تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها محاولة لتوضيح بعض ضوابط العمران والبنيان برؤية مستمدة أساسا من القرآن الكريم، مع إعطاء نماذج فكرية وتطبيقية لكيفية الاستفادة من إمكانيات الحلول المعمارية التراثية الإسلامية لاستيفاء العديد من متطلبات العصر الحديث ومستجداته.

لقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى ثلاثة فصول أساسية، الفصلان الأول والثاني منها يمثلان المستوى العام من هذا البحث، حيث يحتويان على بعض أهم الأسس والمميزات الغامة للعمران والبنيان من منظور قرآني، أما الفصل الثالث فيعطي أفكارا ومعايير تفصيلية وتطبيقية لكل من المسجد

وبيت المسلم المعاصر، لأهمية هذين النوعين من المباني في المجتمعات المسلمة على مر العصور، كما أن هذه المعايير والأفكار يمكن أن يقاس عليها ويطبق ما يصلح منها، على أغلب المباني العامة التي يمكن أن تقام في المجتمع الإسلامي، مع مراعاة الاختلافات التي تنشأ لاختلاف الوظيفة التي يؤديها كل مبنى أو النشاط الذي يُمَارس داخله، كما يوضح المبحث الأخير من هذا الفصل محددات تخطيط المدينة المعاصرة من وجهة نظر الرؤية الإسلامية التى تتأسس على القرآن والسنة والآراء الفقهية.

وإذا كانت هذه الدراسة قد اتخذت من القرآن الكريم أساساً ومنبعا رئيسيا لها، من أجل إبراز أحد جوانب عظمة هذا الكتاب القيم المنزَّل من عند الله جل في علاه، فإن هذا لا ينفي أن في السنة النبوية المطهرة الكثير من الأحاديث الشريفة التي أعطت العديد من الضوابط والمفاهيم التي تعتبر دليلا للعمران والبنيان الإسلامي، وهو ما يعني أن هذا الموضوع ما زال في أشد الحاجة إلى المزيد من الدراسات والأبحاث.

لقد حاولنا في هذه الدراسة أن نستكشف العديد من ضوابط العمران الإسلامي وثوابته، والتي لا تتغير باختلاف المكان والزمان، لأنها مستنبطة من القرآن الكريم الذي تكفل رب العالمين بحفظه من التبديل أو التحريف، وهذا لا يعني أن يتم وضع العمران والبنيان الإسلامي في قوالب جامدة كما يمكن أن يفهم البعض، ولكن هذا يعني أن يتم الالتزام بهذه الضوابط مع إعطاء الحرية للفكر البشري في وضعها في الإطار المادي الذي يتناسب مع المجتمعات المسلمة في مشارق الأرض ومغاربها، حسب الظروف المادية والبيئية والثقافة المحلية لكل مجتمع، بما لا يتعارض مع قواعد الدين الحنيف.

إن موضوع ضوابط العمران والبنيان يمس حياة وثقافة المسلم المعاصر الذي يحتاج إلى المبنى والمعنى أيضا في إطار المدينة والمجتمع الإسلامي

المعاصر، كما يحتاج إلى الحفاظ على هويته الدينية والثقافية في ظل المفهوم الجديد للعولمة، والذي يحاول أن يقتلعه من جذوره الثقافية والتراثية، وهذا لا يعني أنها محاولة للانفصال عن العالم الذي يحيط بنا، ولكنها محاولة تحسب في إطار كيفية الاستفادة من عطاء الدين والتراث الحضاري الإسلامي لخدمة المجتمعات العربية الإسلامية بصفة خاصة، والإسهام في التقدم الثقافي والحضاري للمسيرة الإنسانية من جانب آخر، لمن أراد أن يتواصل مع هذا النموذج الإسلامي للبناء والتعمير الذي يتأسس على تقوى الله، والتأكيد على الممارسات الإعمارية التي تصلح ولا تفسد في الأرض.

د/ يحيى وزيري

القاهرة – ٢٠٠٧م

الفصل الأول

أسس العمران والبنيات
في القرآن

يهدف هذا الفصل إلى استنباط الأسس والقواعد العامة للعمران والبنيان في منظور الإسلام، وتحديدا في القرآن الكريم المصدر الرئيسي للتشريع عند المسلمين، لذلك فإنه من اللازم أولا أن نحدد مفهوم هذا العلم ومجالاته.

يشرح ابن خلدون في مقدمته مفهوم العمران بأنه: «هو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات، لما فى طباعهم من التعاون على المعاش كما نبينه، ومن هذا العمران ما يكون بدويا وهو الذي يكون في الضواحي والجبال، وفي الحلل المنتجعة في القفار وأطراف الرمال، ومنه ما يكون حَضَريا وهو الذى بالأمصار والقرى والمدن والمدر، للاعتصام بها والتحصن بجدرانها»[١].

كما وضع المتخصصون والخبراء العديد من التعريفات لعلم العمارة أو «البنيان» كما نطلق عليه في دراستنا هذه، من أبسط وأعم هذه التعريفات أن «العمارة علم وفن»، ومنها ما يرى أن فن العمارة هو: «الفضاء المحصور بين الجدران»[٢]. ومن وجهة نظر معينة، يمكن تعريف العمارة بأنها: «أسلوب توجيه الحركة داخل الفراغات المعمارية»[٣]، إلى جانب العديد من التعريفات الأخرى والتي لا تخرج عن المعاني والمفاهيم السابقة.

ويرى الباحثون والمتخصصون أن مجال ونطاق علوم العمران والبنيان يمكن أن يتضح من خلال التعريفات والتخصصات الدقيقة التالية[٤]:

- **العمارة (البنيان):** فن علمي لإقامة الكتل في أبعاده الثلاثة، بشرط توفير احتياجات الناس.

---

(١) مقدمة ابن خلدون (بدون تاريخ). مؤسسة دار الشعب، القاهرة، ص ٣٧،٣٨.

(٢) يحيى وزيري (٢٠٠٢)، المجتمع وثقافة العمران، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، ص٥.

(٣) يحيى وزيري (١٩٩٢)، التعمير في القرآن والسنة، القاهرة، ص١١١.

(٤) هشام أبو سعدة (٢٠٠٣)، مهنة عمارة البيئة، النشرة العلمية لبحوث العمران، عدد(٣)، كلية التخطيط الإقليمي والعمراني، جامعة القاهرة، ص٤٥.

- **التصميم الداخلي:** فن علمي أيضا لتنظيم الفراغ داخل الكتلة، وتحقيق الوظيفة والجمال.

- **تخطيط المدن:** علم توزيع استعمالات الأراضي المعدة لاستقبال الكتل عليها، واختيار أماكنها، ووضع سياسات واشتراطات التوزيع.

- **تخطيط المواقع:** علم توزيع الكتل على الأرض وتنظيم تشكيل الفراغ، وفن متطلبات المستعملين.

- **التصميم العمراني أو عمارة المدن:** علم تنظيم العلاقة بين الكتلة والفراغ، بشرط احترام السلوك الإنساني للجماعة الواحدة، سواء في المناطق القائمة بالفعل للحفاظ عليها أو المناطق الجديدة لتنميتها.

- **عمارة البيئة أو التصميم الخارجي:** فن علمي لتنظيم الأمكنة الخارجية المفتوحة على الأرض (ومنها الفراغ حول الكتل وبينها)، بشرط احترام اعتبارات قوى الطبيعة والإنسان والبناء المصنوع بمعرفة الإنسان، لدعم الجمال وتحقيق الاحتياج في الخارج والحفاظ على البيئة الطبيعية والاصطناعية.

وبرؤية أكثر شمولية، فإن مجال علوم العمران والبنيان يبدأ من مستوى تخطيط المدن وتنسيق حدائقها وفراغاتها الخارجية وينتهي ببناء المباني وتصميمها الداخلي، ولكي يتم إنجاز عمل متقن لكل مستوى من هذه المستويات، فإن التخصص يكون لازماً في إطار التكامل والتداخل بينها في غالب الأحوال، ولكن يظل التخصص الدقيق مطلوباً وبخاصة في العصر الحديث مع اتساع نطاق المعارف الإنسانية بصفة عامة.

وربما يعتقد الكثيرون، ومنهم بعض المتخصصين فى مجال العمران والبنيان، أنه لا توجد أصلا نصوص قرآنية أو نبوية تتحدث أو تضع أسسًا

وقواعد لعمارة الأرض، ومن جانب آخر فإن البعض الآخر يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الله سبحانه وتعالى قد أنزل القرآن تبيانا لكل شيء، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ (النحل آية ٨٩) ولقوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ۝ ﴾ (الكهف آية ٥٤) ولكنهم يمرون على بعض الآيات القرآنية ذات الصلة بموضوع الدراسة ويغفلون عما جاء بها من توجيهات جليلة لعمارة الأرض.

لذلك فقد تم تخصيص هذا الفصل لبيان وتوضيح واستنباط الأسس العامة لعمارة الأرض فى القرآن، ومن أجل هذا فقد تم تقسيم هذا الفصل إلى مبحثين أساسيين، وهما:

١- المبحث الأول: ضوابط العمران والبنيان في ضوء قصص القرآن.

٢- المبحث الثاني: أنواع المباني والمصطلحات المعمارية في القرآن.

المبحث الأول

ضوابط العمران والبنيان في ضوء قصص القرآن

قص علينا القرآن الكريم من خلال بعض سوره وآياته قصصا لحضارات جاءت قبل بعثة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، وقد أوضح العلماء والمفسرون قصة الصراع بين الحق متمثلا في رسل وأنبياء الله ومن اتبعوهم بإحسان، وبين الباطل متمثلا في القرى والأقوام الظالمة التي كفرت بأنعم الله وصدت عن سبيل الحق، في محاولة منهم لإظهار الدروس والعبر التي حواها القصص القرآني مصداقا لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1]، ولم يكتف القرآن بذلك بل أمر المسلمين بالسير في الأرض والنظر في آثار الأمم السابقة، وكيف كان عاقبة المكذبين بالرغم مما وصلت إليه هذه الأمم من تقدم حضاري وعمراني لم يغنِ عنها من الله شيئا، ونلمح هذا الأمر والمعاني السابقة، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[2].

كما حمل القصص القرآني في طياته العديد من الضوابط والمفاهيم الخاصة بعمارة وعمران الأرض، والتي تعتبر بمثابة القواعد والأسس التي يسترشد بها المسلمون في كل زمان ومكان من أجل عمارة الأرض العمارة الصالحة الفاضلة، كما أرادها الله سبحانه وتعالى وأكد عليها رسله وأنبياؤه في دعوتهم على مر العصور، لذلك فإن الهدف من هذا المبحث هو محاولة

---

(١) سورة يوسف: من الآية ١١١.

(٢) سورة الروم: الآية ٩.

استنباط بعض ضوابط العمران والبنيان في ضوء ما ورد ببعض القصص القرآني، وهو ما نوضحه في المحاور التالية:

أولا: التحذير من الممارسات الإعمارية الفاسدة:

يلفت القرآن الكريم النظر إلى ما حدث لثلاث حضارات معمارية كبرى حادت عن طريق الحق وطغت في البلاد وبطرت معيشتها، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾[(1)]، فما الممارسات الإعمارية الفاسدة التي جعلت المولى سبحانه وتعالى يصب العذاب على هذه الحضارات صبًّا؟.

بالنسبة إلى قوم «عاد» فقد كانوا يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل، وكانت باليمن بين عمان وحضرموت[(2)]، وكانت لهم حضارة معمارية عظيمة وصفتها الآيات القرآنية بأنها لم يخلق مثلها في البلاد فاغتروا بنعم الله عليهم واستكبروا في الأرض، شكل (١)، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى:﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[(3)].

ومن نماذج الممارسات الإعمارية الفاسدة أنهم أقاموا مباني العبث والفجور، وقد أخبر بذلك القرآن الكريم على لسان نبيهم سيدنا «هود»

---

(١) سورة الفجر: الآيات من ٦ إلى ١٤.

(٢) الحافظ ابن كثير، قصص الأنبياء، دار الحديث، القاهرة، ص ٨٩.

(٣) سورة فصلت: الآية ١٥.

مستنكرا عليهم ذلك في الآيات الكريمة التالية: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾[١]، فالله سبحانه وتعالى ينعى على «عاد» قوم «هود» أنهم كانوا يبنون بكل ريع، أي مكان مرتفع، آية أي بناءً ظاهراً كالعلم لقصد العبث بمن يمر في الطريق من الناس[٢]، وفي ذلك استخدام للأبنية في غير ما شرع الله بناءها، كما يفهم من الآية أيضا أنهم كانوا يبنون في الأماكن المرتفعة ليعرف بذلك غناهم تفاخرا فنهوا عنه ونسبوا إلى العبث[٣].

وبذلك يمكن القول إن استنكار الآيات السابقة للسلوك الإعماري لقوم عاد يتركز على قضيتين أساسيتين متلازمتين نتجتا عن اضطراب في التصور العقائدي[٤]:

القضية الأولى: عبثية الغاية من البناء والإعمار، فعاد قد بنت المباني العظيمة بقصد المباهاة وإظهار القوة ولم تبنِ للحاجة ولا لغرض سليم، ولهذا استنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك، لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان، واشتغال بما لايجدي في الدنيا ولا في الآخرة.

القضية الثانية: غياب التصور الصحيح الذي تستند عليه الممارسات الإعمارية، فالبناء والإعمار إنما هو لسد خلة الباني وحاجته فترة بقائه

---

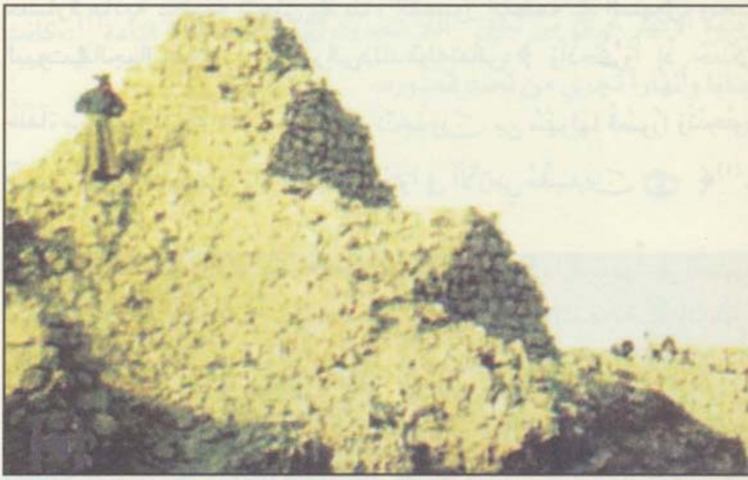
(١) سورة الشعراء: الآيات من ١٢٨ إلى ١٣١.

(٢) الرازي (١٩٩٠)، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) أحمد سعد (٢٠٠٣)، ضوابط بناء المساكن في الفقه الإسلامي. مؤتمر الاجتهاد في قضايا الصحة والبيئة والعمران، جامعة اليرموك- أربد، الأردن.

(٤) عبد الجليل أبو ضمرة (٢٠٠٣). فقه الإعمار وضوابطه في الفقه الإسلامي، مؤتمر الاجتهاد في قضايا الصحة والبيئة والعمران، جامعة اليرموك -أربد، الأردن.

وبنيه في هذه الدنيا، لذا فالمبالغة في البناء حتى يظن أن الباني مخلد في دنياه يستدعي بذلا للأموال وإتعاباً للأبدان وصرفاً للوقت عن المهمة الأعظم والدور الأكبر من تعبيد الخلق لبارئهم والإعداد ليوم لقائه.





شكل (١): جانب من أسوار وآثار تم اكتشافها في نهاية القرن العشرين في موقع مدينة تسمى الآن «شيصار»، ويرجح أنها بقايا مدينة «إرم» المذكورة في القرآن الكريم.

أما «ثمود» فقد كانوا يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك، وقد مر به رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين، وكانوا بعد قوم عاد وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك، وكانت لهم حضارة مادية عظيمة تتجلى في بناء القصور الفخمة في السهول، ونحت البيوت في الجبال، شكل (٢)، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾[1].

لقد تميزت حضارتهم بالرفاهية العمرانية فاتخذوا قصوراً في السهول حيث طبيعة البيئة والمناخ تختلف عن اتخاذ البيوت المنحوتة في الجبال، وأقاموا أماكن صيفية وأخرى شتوية لرفاهيتهم[2].

ولم تقتصر الحضارة الثمودية على الرفاهية العمرانية فقط، بل حولوا السهول إلى جنات وارفة الظلال متنوعة الثمار، فجمعوا بذلك بين فخامة العمران وإنشاء الحدائق وغرس الجنان، وفي هذه المعاني يقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾[3]، فالله سبحانه وتعالى أنعم عليهم وجعلهم في أمن من المحذورات وأنبت لهم من الجنات، وفجر لهم العيون الجاريات وأخرج لهم من الزروع والثمرات، كل ذلك إلى جانب البيوت القوية الآمنة سواء كانت منحوتة في الجبال أو مقامة في السهول.

ويأتي القصص القرآني مؤكداً المعاني السابقة من خلال الصراع بين الحق والباطل، بين سيدنا موسى وهارون عليهما السلام من جانب وفرعون

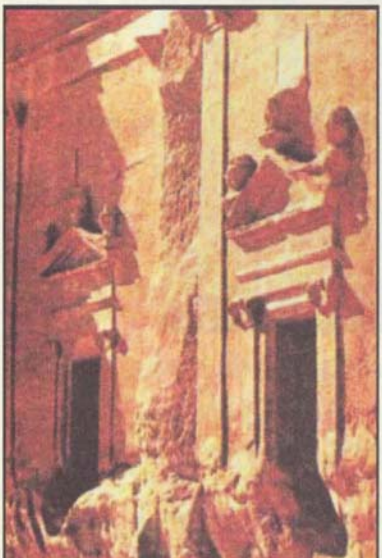
---

(١) سورة الأعراف: الآية ٧٤.

(٢) يحيى وزيري (١٩٩٢)، التعمير في القرآن والسنة، القاهرة، ص١٤.

(٣) سورة الشعراء: الآيات من ١٤٦ إلى ١٤٩.

وهامان رموز الكفر والباطل من جانب آخر، فهاهو فرعون يغتر بنعم الله عليه وبدلا من أن يشكر يفتخر ويتعالى على قومه، كما أخبرنا بذلك سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[١]، قال قتادة[٢]: «كانت جنانا وأنهارا تجري من تحت قصوره».





بعض واجهات المقابر المنحوتة في الجبال.

(١) سورة الزخرف: الآية ٥١.

(٢) انظر تفسير الآية ٥١ في الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.



بعض الأعمدة المنحوتة.

شكل (٢): بعض بقايا آثار الحضارة الثمودية بمنطقة «العلا» بالسعودية

لقد اغتر فرعون بالمُلْك والنعم التي مَنّ الله بها عليه وكفر بإنعامه، وكانت النتيجة الفساد في العقيدة، وانعكس ذلك على انحراف الممارسة المعمارية..فماذا حدث؟، يخبرنا القرآن الكريم بأن فرعون قد أمر وزيره هامان أن يوقد له على الطين ليبني صرحاً، وهو القصر العالي أو البناء العالي الذاهب في السماء[1]، ليظهر لرعيته كذب دعوة موسى في إثبات الألوهية لله تبارك وتعالى، وهو ما يشير إليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ

(١) انظر: المعجم الوجيز (٢٠٠٠)، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، ص٣٦٣.

فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[1]، ومرة أخرى يقترن الفساد العقائدي والاستكبار في الأرض مع انحراف الممارسة الإعمارية، ويصبح «الصرح» المعماري أداة للاستهزاء من دعوة موسى والصد عن سبيل الله.

لقد أوضحت العديد من الآيات القرآنية أن الظلم وارتكاب المعاصي والكفر بالله من أهم أسباب حلول الخراب وإهلاك القرى والأمصار مهما بلغت من درجات الرقي الحضاري والعمراني، والآيات الدالة على ذلك كثيرة نذكر بعضا منها في مقامنا هذا، حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾[4].

وفي أحيان أخرى يجعل الله سبحانه وتعالى النتاج المعماري لبعضٍ من هذه القرى والحضارات الكافرة عبرة لمن بعدها من الأمم، ومن أشهر هذه الحضارات حضارة عاد وثمود حيث يلفت القرآن نظر المؤمنين إلى ما تركوه من مساكن وآثار في قوله تعالى: ﴿ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[5]، فلقد جاء في السنة النبوية عن ابن عمر قال: «لما نزل

---

(١) سورة القصص: الآية ٣٨.

(٢) سورة الحج: الآية ٤٥.

(٣) سورة القصص: من الآية ٥٩.

(٤) سورة هود: الآية ١١٧.

(٥) سورة العنكبوت: الآية ٣٨.

رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا القدور، فأمر رسول الله فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة (ناقة صالح)، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، فقال:«إني أخشى أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم»[١].

ومدائن صالح الآن هي إحدى محطات السكة الحديدية الحجازية، ولقد زارها كثير من المستشرقين وكتبوا عنها، وكان من أهم ما عثروا عليه من الآثار ما يعرف بقصر البنت وقبر الباشا والقلعة والبرج، وقد شاهدوا نقوشاً عليها بالخط المسند الآرامي ولغتها هي العربية الشمالية التي لا تختلف إلا قليلا عن الفصحى[٢].

أما بالنسبة إلى حضارة عاد، ففي يناير من سنة ١٩٩١م، بدأت عمليات الكشف عن آثار في صحراء الربع الخالي بالجزيرة العربية في منطقة «شيصار»، ارجع لشكل (١)، وأعلن عن اكتشاف قلعة ثمانية الأضلاع سميكة الجدران بأبراج في زواياها، مقامة على أعمدة ضخمة يصل ارتفاعها إلى ٩ أمتار وقطرها إلى ٣ أمتار، ويرجع العالم المصري الأستاذ الدكتور زغلول النجار أن هذه الآثار ربما تكون لمدينة «إرم» التي جاء ذكرها في القرآن الكريم[٣].

تلك هي آثار وبقايا حضارات عمرانية عظيمة، ولكنها كذبت رسلها

---

(١) رواه البخاري وأحمد في مسنده.

(٢) توفيق محمد سبع (بدون تاريخ)، قيم حضارية في القرآن الكريم (ج١)، القاهرة، ص١٦٧.

(٣) للمزيد من التفاصيل ارجع إلى:

- زغلول النجار (١٩٩٢). اكتشاف مدينة إرم ذات العماد التي تحدث عنها القرآن الكريم منذ ١٤ قرنا، جريدة الأهرام المصرية (١٠/٤/١٩٩٢).

- زغلول النجار (٢٠٠٢)، من أسرار القرآن، جريدة الأهرام المصرية (٧/١٠/٢٠٠٢).

وتشبثت بالكفر وأمعنت في الظلم، فجعلها الله سبحانه وتعالى بقدرته أثرا بعد عين ولا يخاف عقباها، فبادت كما بادت ما قبلها وإن تنوعت الوسيلة، ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ ﴾[1]، إنه الإهلاك على أي حال، وصدق أمير الشعراء أحمد شوقي حين ربط بين خراب العمران والمستوى الأخلاقي للمجتمعات الإنسانية في قوله[2]:

وليس بعامر بنيان قوم ... إذا أخلاقهم كانت خراباً

ثانيا: تقوى الله أساس الممارسات الإعمارية الصالحة

على الجانب الآخر، يعطينا القصص القرآني نماذج يحتذى بها في الممارسة الإعمارية الصالحة التي تدعو إلى سبيل الحق وعبادة الواحد الأحد، فها هي الآيات الكريمة تصف لنا الصرح «السليماني» الذي أقامه سيدنا سليمان لاستقبال بلقيس ملكة سبأ في قوله تعالى: ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾[3]، لقد كان هذا الصرح صحناً من زجاج تحته ماء وفيه الحيتان ليريها ملكا أعظم من ملكها. وحكى أبو عبيدة: أن الصرح كل بناءٍ عالٍ مرتفع عن الأرض، وأن المرد المحكوك الأملس، ومنه الأمرد[4].

فالآية الكريمة السابقة توضح أن سيدنا سليمان عليه السلام قد استخدم هذا الصرح المعماري، الذي يعكس قمة الجمال والإبداع الفني، كوسيلة وأداة لدعوة ملكة سبأ الكافرة للدخول في الإسلام والإيمان بالله، وفى هذا المقام يصبح «الصرح السليماني» المبني من الزجاج محموداً عند الله لسمو الغاية التي بني من أجلها ألا وهي الدعوة إلى الله، في حين أن

(١) سورة الحاقة: الآيتان ٥، ٦.

(٢) يحيى وزيري (١٩٩٠). خواطر الشيخ الشعراوي حول عمران المجتمع الإسلامي، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ص٢٠.

(٣) سورة النمل: من الآية ٤٤.

(٤) انظر تفسير الآية ٤٤ من سورة النمل في الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.

الصرح «الفرعوني الهاماني» المبني من الآجر (الطين المحروق) مذموم عند الله؛ لأن الغاية من بنائه كانت السخرية والاستهزاء من دعوة موسى والصد عن طريق الحق.

ومن ذلك يتضح لنا معنى ومفهوم جليل في عملية البناء والممارسة الإعمارية، فالعبرة دائما بالهدف والغاية من عملية البناء بغض النظر عن فخامة المبنى أو وضاعته، أو غنى المواد المستخدمة في إنشائه أو فقرها، فالقضية ليست قضية مظهر خارجي بل هي أعمق من ذلك، حيث ترتبط بالتصورات الاعتقادية للمعمرين والهدف من الممارسة الإعمارية نفسها، والتي على أساسها يمكن الحكم على البنيان والعمران بالصلاح أو الفساد.

وفي مقارنة أخرى بين نموذجين لبنائين على عهد سيدنا إبراهيم خليل الله يتضح لنا كيف يكون موقف السماء من الممارسات الإعمارية على الأرض، ففي الحالة الأولى يرشد الله سبحانه وتعالى سيدنا إبراهيم لمكان البيت العتيق ليرفع قواعده في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾(1)، أما عن رفع قواعد البيت فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾(2)، إن الآيات الكريمة السابقة توحي إلينا بأهمية ارتباط الممارسة الإعمارية بالعقيدة السليمة (ألا تشرك بي شيئا) كشرط أساسي، إلى جانب التقوى والتواضع لله جل شأنه (ربنا تقبل منا)، وفي هذه الحالة فإن السماء تُعْلي وتُبارك هذا البناء، شكل (٣).

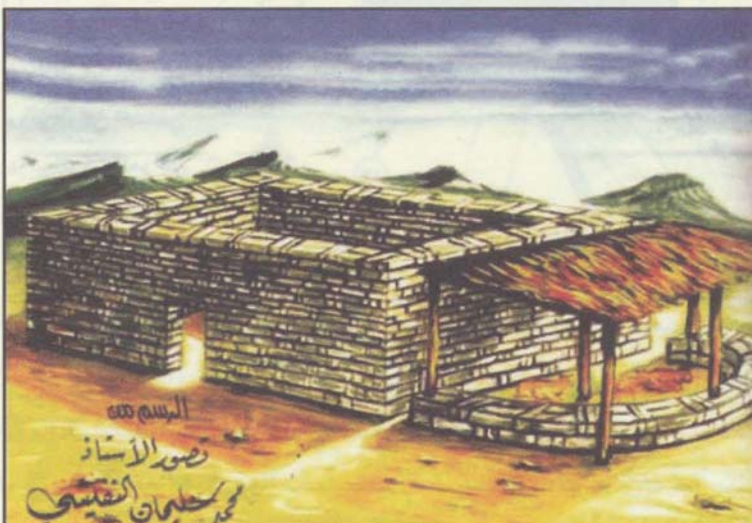
أما في حالة الحياد عن منهج الله، وهى الحالة التي تمثل النموذج الثاني،

---

(١) سورة الحج: الآية ٢٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٧.

فإن النتيجة الحتمية هي تدمير البنيان والعمران كعقاب وعذاب ولو بعد حين، ونلمح هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[1]، قال ابن عباس وزيد بن أسلم وغيرهما: «إنه النمرود بن كنعان وقومه، أرادوا صعود السماء وقتال أهلها فبنوا الصرح ليصعدوا منه، ومعنى «فأتى الله بنيانهم» أي أتى أمره البنيان إما زلزلة أو ريحا فخربته»[2].



رسم تخيلي للكعبة المشرفة على عهد سيدنا إبراهيم.

(١) سورة النحل: الآية ٢٦.

(٢) انظر تفسير الآية ٢٦ من سورة النحل في الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.



شكل (٣): الكعبة المشرفة أول بيت وضع للناس على الأرض.

إن المقارنة السابقة بين رفع وإعلاء بنيان الكعبة المشرفة وتدمير بنيان النمرود لتؤكد وتوضح موقف السماء الثابت من عمليات الإعمار على الأرض، فهي تبارك كل بنيان أسس على تقوى الله من أجل عمارة الأرض عمارة صالحة فاضلة تيسر للبشر أمور العبادة والمعيشة، كما تدمر أو تعطل كل بنيان أو عمران فاسد.

إن التقوى هي الأساس المعنوي لكل بنيان وعمران مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾[1]، أما بعد عمارة الأرض فلا يجب أن نفتتن بالمساكن والدور والعشيرة والأموال، بحيث تصبح أحب إلينا من طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله، وإلا لا نكون قد اعتبرنا بما حدث للأمم المذكورة في قصص القرآن، لذلك يحذرنا الله سبحانه وتعالى من هذا بقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[2].

ثالثا: الغاية من إقامة المدن والقرى

في عصرنا الحديث تبنى المدن أو تقام التجمعات العمرانية الجديدة من أجل توفير وإيجاد المساكن والبيوت خاصة للشباب، وبخاصة المتزوجين حديثا أو المقبلين على الزواج، وهو هدف طيب لا غبار عليه، ولكن في الرؤية القرآنية فإن الغاية من إقامة المدن والتجمعات العمرانية الجديدة هي غاية أكثر سموا ورقيا ولا تنحصر فقط في إيجاد المزيد من البيوت والمساكن.

ففي ملمح قرآني يتأكد لنا أن الغاية من إعمار الأرض وإقامة المجتمعات العمرانية والمدن هو عبادة الله سبحانه وتعالى وإقامة الصلاة، يقول

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٩.

(٢) سورة التوبة: الآية ٢٤.

الله سبحانه وتعالى على لسان سيدنا إبراهيم أبي الأنبياء:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[1]، فالغرض الأساسي من إسكان سيدنا إبراهيم لزوجته هاجر وابنه إسماعيل عند البيت الحرام هو إقامة الصلاة، والصلاة هنا هي رمز وأساس لكل العبادات الأخرى، فمن أقام الصلاة فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين كما علمنا رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، ثم بعد ذلك تأتي بقية الأهداف من إقامة التجمعات العمرانية من توفير المأوى وفرص العمل للأجيال الجديدة.

ثم نلمح من الآية الكريمة السابقة أن أساس الإسكان والتجمع هو وجود بيت الله الحرام في هذا الوادي الذى لايوجد فيه زرع وبالتبعية أيضا لايوجد به ماء، وكأن الآية الكريمة تلفت النظر أن بداية وأساس أي تجمع عمراني هو وجود المسجد أولا.

إن فكرة وجود المسجد (أو المساجد) كأساس لإقامة التجمع العمراني، سواء كان قرية أو مدينة، تتأكد أيضا من تأمل قوله تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[2]، فلقد أشارت الآية الكريمة إلى المسجد الحرام وهو أساس التجمع العمراني في أم القرى مكة المكرمة، شكل (٤)، وإلى أن المسجد الأقصى أساس التجمع العمراني في بيت المقدس، شكل (٥).

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١.

كما أشارت آية كريمة أخرى إلى أن أساس التجمع العمراني للمسلمين في المدينة المنورة قد بدأ ببناء المساجد أولا، وهو ما حدث بالفعل بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام مباشرة إلى «يثرب»، فقد كان أول ما فعله عليه الصلاة والسلام أن قام ببناء مسجد «قباء»، ثم بعد ذلك مسجده عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة، شكل (٦)، لذلك فإن الله سبحانه وتعالى أمره بعدم الصلاة في مسجد «الضرار» الذي بناه المنافقون ضراراً لمسجد قباء الذي أسس بنيانه على التقوى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[1].

وقد ورد في الحديث الشريف عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال[2]: «المسجد الذي أسس على التقوى مسجدي هذا»، ولا تعارض هنا بين الآية والحديث، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد الرسول عليه الصلاة والسلام أولى وأحرى أن يوصف بذلك أيضا.

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٨.

(٢) تفرد به الإمام أحمد في مسنده.



شكل (٤): المسجد الحرام هو أساس التجمع العمراني في مكة المكرمة.



شكل (٥): المسجد الأقصى هو أساس التجمع العمراني بمدينة القدس.



شكل (٦): مسجد المدينة هو أساس التجمع العمراني في المدينة المنورة.

لقد أوضح القصص القرآني أن الأساس الذى أقيمت عليه المدن الثلاث المقدسة عند المسلمين، مكة المكرمة وبيت المقدس والمدينة المنورة، هو وجود المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، وهي: المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك من أجل إقامة الصلاة وعبادة الواحد الأحد.

لقد فهم المسلمون الأوائل أن عمارة الأرض وتأسيس المدن والأمصار عمل تعبدي في المقام الأول، الهدف منه إقامة شرائع الدين وسنن النبيين، وهذه المعاني وغيرها نجدها في دعاء إدريس الثاني (عام ١٩٢هجرية) عند قيامه ببناء مدينة «فاس» بالمغرب، شكل (٧)، في قوله[١]: «اللهم إنك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا رياء ولا سمعة ولا مكابرة، وإنما أردت أن تعبد بها ويتلى كتابك، وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة

(١) البخلاخي أمحند (١٩٩٤)، فاس ومراكش..مدن لها تاريخ، مجلة المنهل- عدد ٥١٩، جدة، ص٢٦٤.

نبيك ما بقيت الدنيا...، اللهم وفق سكانها وقطانها للخير، وأعنهم واكفهم مؤونة أعدائهم وادرر عليهم الأرزاق، واغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق، إنك على كل شيء قدير». هكذا قرأ المسلمون الأوائل آيات القرآن وقصصه فتدبروها وفهموها واتعظوا بما حدث للأمم الغابرة، وعرفوا أن الغاية من العمران والبنيان أن يكون في خدمة الدين وإقامة شرائعه وحدوده، دون فخر أو مباهاة أو مكابرة.

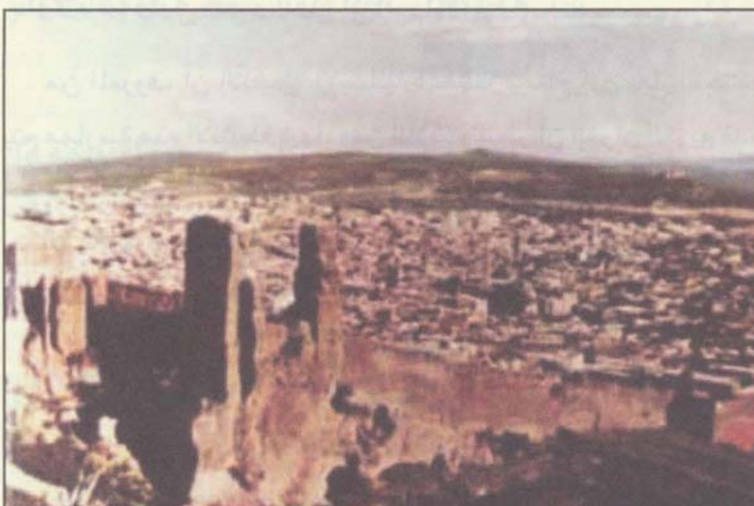
إن الشاهد الأساسي من كل ما سبق أن طاعة الله ورسله عليهم أفضل الصلاة والسلام هي أكبر ضمان وأعظم حافظ للبنيان والعمران من الخراب والهلاك، وأن الاعتبار بما حدث للأمم السابقة المكذبة التي ظلمت نفسها بالكفر وعدم طاعة الله واجب علينا ونحن نعمر الأرض، كما أن تقوى الله هي الأساس المعنوي الذي يجب أن تقام عليه المدن، والأمصار، وأن الافتتان بالمساكن والبيوت أمر مرفوض من وجهة نظر القرآن، لأنها وسيلة وليست غاية.

لقد فهم المسلمون الأوائل المعاني السامية الجليلة التي وردت في آيات القرآن الكريم الخاصة بعمارة الأرض، فكانوا حريصين على التنبيه عليها وتطبيقها بقدر المستطاع، فعلى سبيل المثال نورد هنا خطبة جليلة لأبي الدرداء وجهها إلى أهل دمشق في عصور سابقة، لما رأى ما أحدثه المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الأشجار، وما ورد في هذه الخطبة ينطبق على الكثير من الممارسات الإعمارية المنتشرة حاليا في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، فقام في مسجدهم فنادى يا أهل دمشق، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال[1]: «ألا تستحيون، ألا تستحيون، تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون، ويبنون فيوثقون، ويأملون فيطيلون، فأصبح أملهم غرورا، وأصبح جمعهم

(١) توفيق محمد سبع (١٩٨٤)، قيم حضارية في القرآن الكريم، دار المنار، القاهرة، (ج١)، ص١٥٩.

بورا، وأصبحت مساكنهم قبورا، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدنان وعمان خيلا وركابا، من يشترى مني ميراث عاد بدرهمين».

هذه هي بعض ضوابط العمران والبنيان المستنبطة من بعض ما ورد في القصص القرآني، تنير طريق المسلمين في كل زمان ومكان وتضع أمامهم الثوابت الواجب اتباعها عند عمارة الأرض، حتى لا ينبهروا بالمظاهر الكاذبة للمدنيات والحضارات السابقة أو الحالية والتي اتخذت من العمران رمزاً للتفاخر والتكبر لفساد عقيدتهم وابتعادهم عن الطريق القويم، ولتكون الممارسات الإعمارية الصالحة التي أساسها تقوى الله هي السائدة في المجتمعات الإسلامية، والسبيل لرضاه ونيل السعادة في الدارين.



شكل (٧): مدينة فاس بالمغرب.

المبحث الثاني

أنواع المباني والمصطلحات المعمارية في القرآن

يلفت نظر المتأمل والدارس لسور وآيات القرآن الكريم في مجال عمران وعمارة الأرض أمران مهمان: أولهما: شمولية حصر الآيات القرآنية للعديد من أنواع المباني المعمارية على اختلافها وتعددها، وثانيهما: دقة التفرقة بين المفاهيم والمصطلحات العمرانية والمعمارية.

لذلك، فقد رأينا أن يتم تخصيص هذا المبحث لإظهار وتوضيح هذين الأمرين، كأحد أسس علوم العمران والبنيان التي وردت في القرآن الكريم، لقد صدق الله العظيم حيث يقول في محكم آياته: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾»[1].

أولا: شمولية حصر أنواع المباني المعمارية

من المعروف أن الأنشطة الإنسانية المختلفة تحتاج إلى مبانٍ مختلفة يتم ممارسة هذه الأنشطة فيها، ومن اللافت للنظر أن القرآن الكريم قدم حصرا لأهم نوعيات المباني على اختلاف وظائفها من خلال آيات كريمة جاءت في سور متعددة، وهو ما يعتبر أحد جوانب إعجاز القرآن الكريم في هذا المجال، وفيما يلي توضيح لذلك:

١- مباني العبادة:

لم يغفل القرآن الكريم عن ذكر أنواع مباني العبادة المختلفة عند أهل الشرائع السماوية، وهم اليهود والنصارى والمسلمين، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ

---

(١) سورة الكهف: الآية ٥٤.

وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾[1]، أي لولا هذا الدفع لهدم في زمن سيدنا موسى «الصلوات»، وفي زمن سيدنا عيسى «الصوامع» و«البيع»، وفي زمن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام «المساجد».

والصوامع جمع صومعة وهي بناء مرتفع، وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى وبعبَّاد الصابئين. قال قتادة: ثم استعمل في مئذنة المسلمين، والبيع جمع بيعة وهي كنيسة النصارى، والصلوات هي كنائس اليهود، فعلى ذلك فالصوامع للرهبان والبيع للنصارى، والصلوات لليهود، والمساجد للمسلمين[2].

أما بالنسبة إلى المساجد، فقد ورد ذكر لفظ «المسجد» معَّرفا في آيات القرآن الكريم نحو سبعة عشر مرة، منها خمسة عشر مرة جاء لفظ المسجد موصوفا «بالحرام» أي «المسجد الحرام»[3]، وهو ما يدل على أنه أهم مساجد الأرض على الإطلاق وأعظمها قدسية ومكانة، ومما يؤكد ذلك أنه أول بيت وضع للناس على الأرض يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[4].

وعن الشعبي عن علي رضي الله عنه قال: «كانت البيوت قبلة، ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله»، وزعم السدي أنه أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقا، والصحيح قول علي رضي الله عنه[5].

٢- مباني السكن والإيواء:

الإنسان بطبيعته البشرية لا يستطيع أن يعيش في الحياة بدون مأوى

(١) سورة الحج: من الآية ٤٠.

(٢) انظر تفسير الآية ٤٠ من سورة الحج في الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.

(٣) يحيى وزيري (التعمير في القرآن والسنة): مرجع سابق، ص١٠٤.

(٤) سورة آل عمرن: الآية ٩٦.

(٥) انظر: كتاب «فتح الباري شرح صحيح البخاري» للإمام ابن حجر العسقلاني، وأيضا: يحيى وزيرى، المرجع السابق، ص١٠٥.

يبيت فيه، ليستريح من عناء العمل، كما يلجأ إليه ليحميه من البرد والحر والظروف المناخية الصعبة، لذلك فإن البيوت والمساكن تعتبر إحدى النعم التي مَنَّ الله سبحانه وتعالى بها على البشر، وفي هذا المعنى يقول الله جل في علاه: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾[1].

فالآية الكريمة السابقة من سورة النحل فيها تعديد لنعم الله تعالى على الناس في البيوت، فذكر سبحانه وتعالى بيوت المدن وهي الإقامة الطويلة، وقوله «سكنا» أي تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة، ثم ذكر بعد ذلك بيوت النقلة والرحلة وهي «وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها»، أي من الأنطاع والأدم بيوتا، يعني الخيام والقباب يخف عليكم حملها في الأسفار، وقال أبو زيد الأنصاري: «أثاثا» الأثاث متاع البيت واحدها أثاثه، وقال الأموي: الأثاث متاع البيت وجمعه آثه وأثث، أي جعل لكم من صوف الغنم ووبر الإبل وشعر الماعز ما تلبسون وتفرشون وتتمتعون إلى حين الموت أو أن تبلى[2].

أي إن الآية الكريمة ذكرت بيوت المدن والقرى الثابتة، وبيوت البدو المتنقلة والمتمثلة في الخيام والقباب، ثم تأتي آيات كريمة أخرى لتوضح أن من الأشكال الطبيعية ما يمكن اتخاذه كمأوى أو بيت، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ ﴾[3]، كما أخبر سبحانه وتعالى عن اتخاذ قوم ثمود من الجبال بيوتا في قوله: ﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾[4]، كما تشير إحدى آيات سورة الكهف إلى لجوء الفتية

---

(١) سورة النحل: الآية ٨٠.

(٢) انظر تفسير الآية ٨٠ من سورة النحل في الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.

(٣) سورة الكهف: من الآية ٦٣.

(٤) سورة الحجر: الآية ٨٢.

المؤمنين إلى هذا الكهف العجيب احتماء به من أهل الكفر، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾[1]، وتشير الآية الكريمة إلى الكهوف والغيران كأحد أشكال المأوى الطبيعية التي يمكن أن يأوي إليها البشر.

إن كتب ومراجع تاريخ العمارة والآثار[2] توضح أن البشر في مراحل زمنية معينة من التاريخ، خاصة قبل انتشار القرى والمدن والتجمعات العمرانية، كانوا يتخذون من الأشكال الطبيعية كالصخور أو الجبال أو الكهوف مأوى ومسكناً يعيشون فيه، شكل (٨).

٣- المباني الدفاعية والحربية:

جاء ذكر العديد من عناصر ومباني العمارة الدفاعية في بعض الآيات القرآنية، نفصلها فيما يلي:

أ- البروج المشيدة: وهى الحصون المنيعة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[3]، والبرج في المباني والحصون الدفاعية عبارة عن عنصر معماري الغرض منه دعم أسوار المدن أو القلاع أوالقصور بغرض زيادة فاعلية هذه العناصر من الناحية الدفاعية، وتزود هذه الأبراج عادة بغرف علوية صغيرة لقذف النار، كما تزود بمزاغل رأسية لرمي السهام ومزاغل أفقية لصب السوائل المحرقة[4]، شكل (٩).

(١) سورة الكهف: آية ١٦.

(٢) انظر على سبيل المثال: ثيا وريتشارد برجيز (ترجمة:محمد توفيق محمود) (١٩٦٢). من الحجارة إلى ناطحات السحاب. دار النهضة العربية، القاهرة، ص ٩،٨.

(٣) سورة النساء: من الآية ٧٨.

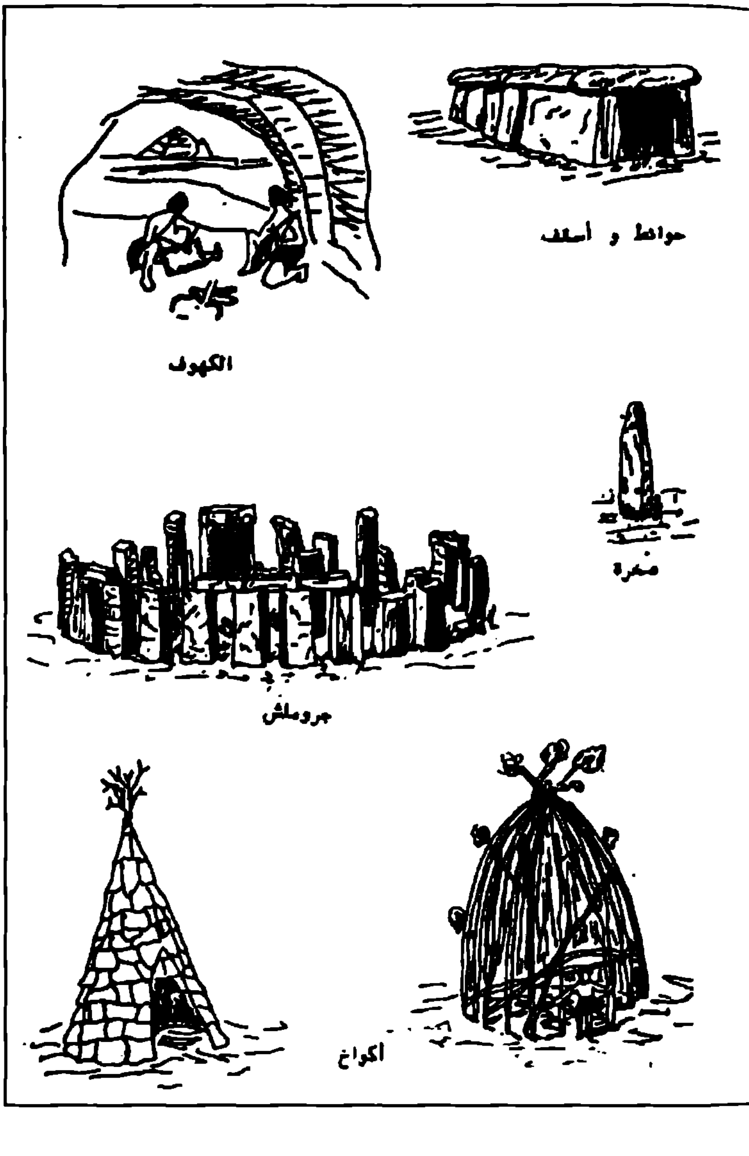
(٤) يحيى وزيري (١٩٨٥): العمارة الإسلامية الحربية وتأثيرها على العمارة المعاصرة، مجلة عالم البناء- عدد ٦٣، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، القاهرة، ص١٩.

ب- الحصون: يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾[1]، فالله جل وعلا هو الذي أخرج يهود بني النضير من مساكنهم بالمدينة المنورة، أي في أول مرة حشروا وأخرجوا فيها من جزيرة العرب إلى الشام، وظنوا أن حصونهم الحصينة تمنعهم من بأس الله[2]، والشاهد في الآية الكريمة ذكر الحصون باعتبارها أهم عناصر العمارة الدفاعية في مجال العمارة الحربية.

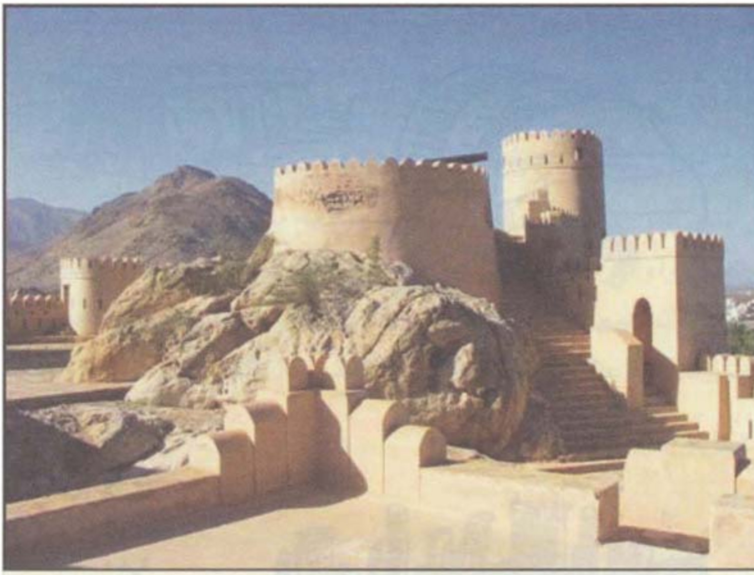
شكل (١٠).

(١) سورة الحشر: من الآية ٢.

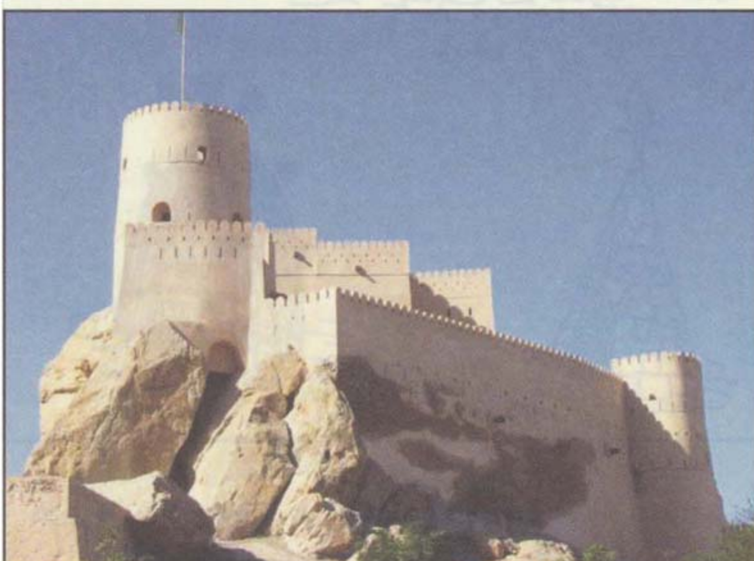
(٢) يحيى وزيري (التعمير في القرآن والسنة): مرجع سابق، ص١٤١.



شكل (٨): بعض أنواع المأوى التي كان يلجأ إليها الإنسان قبل ظهور التجمعات العمرانية، ومنها المأوى الطبيعي كالكهوف والجبال والصخور التي جاء ذكرها في القرآن الكريم.



شكل (٩): أبراج في سور قلعة نخل بسلطنة عمان.



شكل (١٠): قلعة نخل من أجمل قلاع المنطقة الداخلية بسلطنة عمان.

ج- الأسوار الدفاعية:

تعتبر الأسوار من أهم التحصينات الحربية سواء على مستوى المدن أو المباني أو الحصون، فهي خط الدفاع الأول؛ لأن المهاجمين إذا تمكنوا من اقتحام أسوار المدينة والنفاذ منها إلى الداخل، فإن هذا يعني تمكنهم من الاستيلاء على باقي المدينة (أو الحصن) بسهولة ويسر.

ولقد ورد ذكرُ السد الذي بناه ذو القرنين باعتباره أحد نماذج العمارة الدفاعية التي أعطى القرآن الكريم وصفا دقيقا له في سورة الكهف، يقول الله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾[1].

الردم هو السد، والردم ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل، وقيل الردم أبلغ من السد، إذ السد ما يسد به والردم وضع الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه حتى يقوم من ذلك حجاب منيع.

ومن الآيات القرآنية التي تتحدث عن نماذج للجدر الدفاعية قوله تعالى: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ﴾[2]، ذكر ابن كثير ما مختصره[3]: «يعنى أنهم من جبنهم وهلعهم (يقصد اليهود)، لايقدرون على مواجهة جيش الإسلام، بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة».

(١) سورة الكهف: الآيات من ٩٥ إلى ٩٧.

(٢) سورة الحشر: من الآية ١٤.

(٣) انظر تفسير الآية ١٤ من سورة الحشر في تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير.

والشاهد في الآية الكريمة السابقة ذكر القرى المحصنة، والجدر أي الأسوار الدفاعية.

٤- المباني العامة:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[١]، وفى الآية الكريمة إباحة رفع الاستئذان في كل بيت لا يسكنه أحد، لأن العلة في الاستئذان إنما هي لأجل خوف الكشفة على الحرمات، فإذا زالت العلة زال الحكم[٢].

وفى سبب نزول هذه الآية الكريمة روي عن أبى بكر رضي الله عنه أنه قال: «يا رسول الله، أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام ليس فيها ساكن» فأنزل الله تعالى: «ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة»[٣]، والمتاع المذكور هو الانتفاع، فالطالب يدخل الخانكات وهي المدارس لطلب العلم، والساكن يدخل الخانات وهي الفنادق، والزبون يدخل الدكان للابتياع، والحاقن يدخل الخلاء للحاجة[٤].

فالآية السابقة تشير إلى المباني العامة ودور الضيافة والمدارس وما شابهها، وأنه لاينطبق عليها ما ينطبق على البيوت السكنية من أهمية مراعاة الاستئذان وعوامل الخصوصية، لأنها مباني عامة تخدم كل أفراد المجتمع.

ولقد ورد في بعض الآيات القرآنية الأخرى ذكرُ بعض نماذج من المباني العامة والمتنوعة، نحاول أن نلقي الضوء عليها فيما يلي:

---

(١) سورة النور: الآية ٢٩.

(٢) يحيى وزيري (التعمير في القرآن والسنة): مرجع سابق، ص١٣٤.

(٣) انظر تفسير الآية ٢٩ من سورة النور في الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.

(٤) المرجع نفسه.

أ- **الأسواق:** الأسواق عبارة عن مجموعة من الدكاكين مفتوحة على جانبي الطريق، وكان لكل صناعة وتجارة سوق خاصة، فهناك ما هو للصائغين أو النحاسين، وقد تكون السوق مسقوفة بكاملها أو بمجموعة من دكاكينها في بناء كبير واحد كالخان أو الوكالة[1]، شكل (١١).

وقد ورد ذكر الأسواق في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ ﴾[2]، وقد جاء ذكر السوق في غير حديث، ذكره أهل الصحيح، وتجارة الصحابة معروفة خاصة المهاجرين، كما قال أبو هريرة: «إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق» (التبايع بالأسواق)[3].

ب- الخانات ومحطات القوافل:

من المباني العامة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم محطات القوافل التجارية أو الخانات، وهي لفظة فارسية أطلقت على مكان مبيت المسافرين، ونلمح هذه الإشارة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾[4].

أي جعلنا بين بلاد «سبأ» وبين قرى الشام التي باركنا فيها للعالمين قرى متصلة من اليمن إلى الشام، يرى بعضها من بعض لتقاربها، ظاهرة لأبناء السبيل، وقلنا لهم سيروا بين هذه القرى متى شئتم لا تخافون في ليل ولا نهار، قال الزمخشري: «كان الغادي منهم يقيل في قرية، والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام»[5].

(١) عبد الرحيم غالب (١٩٨٨): موسوعة العمارة الإسلامية، جروس برس، بيروت، ص٢٣١.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٧.

(٣) أخرجه البخاري.

(٤) سورة سبأ: الآية ١٨.

(٥) انظر تفسير الآية ١٨ من سورة سبأ في صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني.

وفي الآية إشارة إلى محطات القوافل التجارية والخانات التي توجد على طرق القوافل التجارية أثناء سفرهم للتجارة والترحال، حيث كان يأوي التجار إلى هذه القرى الظاهرة المعروفة للخانات أو المباني المخصصة للغرباء، وذلك من أجل الراحة أو التزود بالماء والمؤن التي تعين المسافرين والتجار على استكمال رحلتهم من بلد إلى آخر.

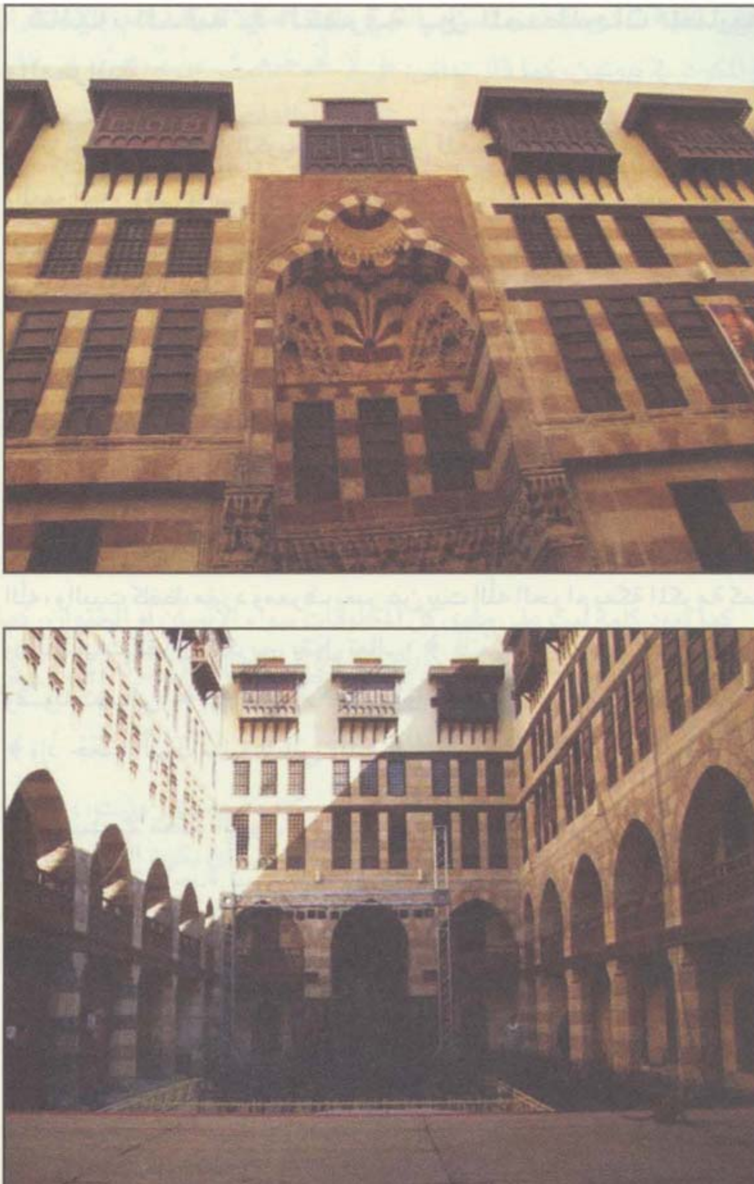
ج- السجون:

السجون جمع سجن وهو المحبس، وقد كان في كل مدينة سجن واحد أو أكثر مستقل البناء أو ملحق بسور أو برج أو قلعة[1]، وقد جاء ذكر السجن في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[2].

---

(١) يحيى وزيري (التعمير في القرآن والسنة): مرجع سابق، ص١٣٨.

(٢) سورة يوسف: الآية ٤٢.



شكل (١١): وكالة الغورى المملوكية بالقاهرة من الخارج والداخل.

ثانيا: الدقة في التفرقة بين المصطلحات المعمارية والعمرانية

تزخر آيات القرآن الكريم بالعديد من المصطلحات والعناصر المعمارية والعمرانية، وهي توضح أحد ملامح الإعجاز القرآني في تفسير المفهوم الدقيق لكل عنصر، والفرق بينه وبين العناصر الأخرى.

وسنحاول في هذا المحور من البحث أن نعطي أمثلة متعددة لتوضيح دقة وعظمة القرآن في هذا الشأن، وفيما يلي تفصيل لعناصر العمران كما استنبطها بعض الباحثين من آيات القرآن الكريم[١]،[٢]:

- **البيت:** إن معنى البيت هو البناء الذي له رب واحد يتصرف فيه كيف شاء، لذلك سميت الكعبة بيت الله الحرام، وكذلك سميت المساجد بيوت الله، والبيت كلفظ مفرد ومعرف يعبر عن بيت الله الحرام بمكة المكرمة كما ورد في آيات القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾[٥].

والبيت في معناه اللغوي يعبر عن الاستقرار والديمومة، كما يعبر عن ملكيته لأسرة واحدة تبيت فيه، ويمكن أن نستلهم هذا المفهوم من قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾[٦]،

---

(١) عبد العزيز عبد الله أبا الخيل (١٩٨٩): الكتاب والسنة أساس تأويل العمارة الإسلامية، ج١ ص ١٦ وما بعدها، شركة مطابع نجد التجارية، الرياض، .

(٢) محمود حسن نوفل (٢٠٠٢): العمران والبيئة من منظور إسلامي، أبحاث مؤتمر الاجتهاد في قضايا الصحة والبيئة والعمران، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية- جامعة اليرموك، الأردن.

(٣) سورة قريش: الآية ٣.

(٤) سورة البقرة: من الآية ١٢٧.

(٥) سورة البقرة: من الآية ١٢٥.

(٦) سورة الأحزاب: من الآية٣٣.

وفى الآية الكريمة أمر لنساء النبي عليه الصلاة والسلام بالاستقرار والمكوث في بيوتهن، كما قال تعالى: ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾ [١]، وهى إشارة أيضا إلى وجوب استقرار المطلقات في البيوت حتى تنتهي عدتهن، لذلك قال المولى عز وجل: «من بيوتهن» ولم يقل «من بيوتكم».

والبيت يعبر عن كيان مادي منشأ، ويظهر ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾[٢]، وأيضا قول السيدة آسية امرأة فرعون: ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾[٣]، فالنحت والبناء من وسائل البناء المادي.

كما أن للبيوت حرمة وخصوصية معتبرة، يتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾[٤]، شكل (١٢).

كما تعود كلمة بيت على مأوى كل المخلوقات سواء الإنسان أو الحيوان، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[٥].

- **المسكن:** سكن الشيء سكونا ذهبت حركته وقر استقر وثبت، والمسكن في اللغة من سكن السكون بعد الحركة، وهو بمعنى أن يكون البناء قد أقيم على أرض جديدة أو موطن جديد بعد أن تم الانتقال من الموطن الأصلي إلى موطن جديد، يقول تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾[٦].

---

(١) سورة الطلاق: من الآية ١.

(٢) سورة الحجر: الآية ٨٢.

(٣) سورة التحريم: من الآية ١١.

(٤) سورة النور: الآية ٢٧.

(٥) سورة النحل: الآية ٦٨.

(٦) سورة إبراهيم: من الآية ٣٧.

لقد كان للقرآن الكريم السبق في التحديد المبكر لمعنى البيت والمسكن، وأن البيت ليس كالمسكن، حيث يقول جل في علاه: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنًا ﴾[1]، فالله هو الذى جعل البيت مسكنا، وورود البيت قبل المسكن فيه إشارة واضحة إلى أنه لكي يصبح البيت سكنا فهو بحاجة إلى فترة من الزمن حتى يتحقق الارتباط الذهني بين الساكنين والوسط الفيزيائي الذي هو البيت، وعند إسقاط هذا الإيضاح القرآني على الجدل القائم باللغة الإنجليزية نجد أن البيت يتطابق مع كلمة (House) بينما المسكن، يتطابق مع كلمة (Home).

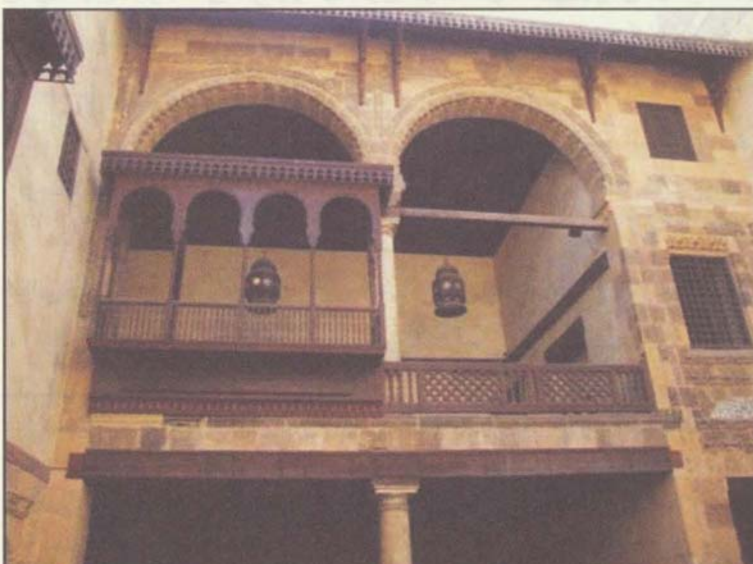
إن البيت هو الوسط الفيزيائي للمسكن ولا يعد البيت مسكنا إلا إذا حدثت العلاقة الحميمية التي يشير إليها القرآن من خلال فعل السكن الذي هو علاقة اجتماعية زمنية، وهذا ما تؤكده إشارة أخرى في القرآن الكريم حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٍ﴾[2]،

(١) سورة النحل: من الآية ٨٠.

(٢) سورة النور: من الآية ٢٩.



جانب من الواجهات المطلة على فناء بيت السحيمي بالقاهرة القديمة.



واجهة المقعد المطل على فناء بيت السناري بالسيدة زينب بالقاهرة.

شكل (١٢): نماذج لبيوت ومساكن إسلامية قديمة تمتاز بتوفير الخصوصية لقاطنيها.

وفي الآية الكريمة إشارة واضحة إلى أن البيت لا يعد سكنا إذا فرغ من ساكنيه ويفقد قيمته كوسط له حرمته وخصوصيته، إن المسكن يحمل معنى إنسانيا أكثر من البيت(١).

ومن الإشارات والمعاني التي وردت في القرآن الكريم لمفهوم المسكن أنه البيت المهجور، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ ﴾(٢)، والمقصود هنا مساكن الأولين المهجورة التي يجوب فيها من جاء بعدهم للعظة والاعتبار، كما ورد أيضا في نفس المعنى قوله تعالى: ﴿ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾(٣).

- **المنزل:** من الفعل نزل، والنزول هو الهبوط من أعلى إلى أسفل، فهو يعني المهبط أو المقر الأخير، والمنزل هو المكان الذي يتوفر فيه الفضل والعطاء والبركة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾(٤).

وجمع منزل منازل، بمعنى موقع ومواقع ومما يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾(٦).

- **الدار:** الدار من دار يدور من كثرة حركات الناس فيها، فهي تدل

---

(١) مشاري عبد الله النعيم (٢٠٠١): من المربع إلى العذيبات.. رؤى وأفكار في العمارة السعودية، كتاب الرياض- عدد٩٤، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، ص١١٣.

(٢) سورة طه: الآية ١٢٨.

(٣) سورة القصص: من الآية ٥٨.

(٤) سورة المؤمنون: الآية ٢٩.

(٥) سورة يونس: من الآية ٥.

(٦) سورة يس: الآية ٣٩.

على كثرة عددهم وهو ما يحيط بسكانه، وهو يعني جميع ما في الموقع من عناصر البناء والفناء، وهو مكان يشغله أناس من عدة أجناس، وقد سمى الله سبحانه وتعالى الآخرة بالدار: ﴿ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾[1]، كما سمى الجنة بالدار: ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

كما تعني الدار البلد، ولهذا سمي البناء داراً لكثرة سكانها وتعددهم كما يتعدد سكان البلد، يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾[3]، والمقصود بالدار في الآية الكريمة المدينة المنورة، كما يقول سبحانه وتعالى أيضا: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ ﴾[4]، والمقصود هنا قوم ثمود، ودارهم المعنية هي قريتهم. ومما سبق يتبين لنا أن عمر الدار أطول من عمر المسكن.

- **البناء والبنيان:** البناء هو كل منشأ مرتفع عن الأرض، والدليل أن البناء معناه الارتفاع إلى أعلى لقوله سبحانه وتعالى فيما يحكى عن فرعون: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ ﴾[5]، ويؤكد ذلك أيضا أن البناء يكون طبقات إلى أعلى حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾[6].

ومرادف كلمة بناء في القرآن الكريم بنيان، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾[7]، وقد تأتى للتعبير عن البناء

---

(١) سورة غافر: من الآية٣٩.

(٢) سورة النحل: من الآية ٣٠.

(٣) سورة الحشر: من الآية ٩.

(٤) سورة هود: من الآية ٦٥.

(٥) سورة غافر: الآية ٣٦.

(٦) سورة الزمر: من الآية٢٠.

(٧) سورة الكهف: من الآية ٢١.

في معناه الأفقي حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ﴾[1]، ثم يأتي وصف قرآني ليوضح أن البنيان عبارة عن منشأ متكامل له قواعد وسقف وبالتالي حوائط، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾[2].

- **القصر:** القصر في اللغة يعني البيت الفخم الواسع، وهو مقصور على ساكن واحد وأسرة واحدة، وقد وصف الله تعالى قوم ثمود بالغنى والثراء في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗا ﴾[3]، كما ورد إيضاح الفخامة في وصف القصر في موضع آخر من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾[4]، حيث تدل كلمة «مشيد» على الفخامة والمغالاة في الزخرفة.

- **القرية:** القرية هي مجموعة من المساكن لقوم ينتسبون إلى أصل واحد مثل القبيلة وجنسهم واحد، شكل (١٣)، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ ﴾[5]، كما أطلق الله سبحانه وتعالى على مساكن قوم عاد وثمود اسم القرى في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ﴾[6]، كما أطلق اسم القرية

---

(١) سورة الصف: الآية ٤.

(٢) سورة النحل: الآية ٢٦.

(٣) سورة الأعراف: من الآية ٧٤.

(٤) سورة الحج: من الآية ٤٥.

(٥) سورة يونس: من الآية ٩٨.

(٦) سورة هود: من الآية ١٠٢.

على مساكن قوم لوط حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ »[1].

كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾[2]، والقريتان هما مكة والطائف وسكانهما قريش وثقيف، كما أطلق الله سبحانه على مكة المكرمة مسمى «أم القرى» فهي كبيرة الحجم والمكانة، شديدة التأثير فيما حولها، وسكانها من أقوام ينتسبون إلى أصل واحد، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[3].



قلعة بهلاء والمساكن المحيطة بها في سلطنة عمان.

---

(١) سورة الأنبياء: من الآية ٧٤.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٣١.

(٣) سورة الأنعام: من الآية ٩٢.



منطقة البستكية القديمة بدبي.

شكل (١٣): نماذج لتجمعات عمرانية ينتسب قاطنوها إلى أصول واحدة.

- **المدن والمدائن:** المدينة هي مساكن لأقوام مختلفي الأصل والجنس ومن تجمعات لاتربطها روابط الدم، شكل (١٤)، قال تعالى في قصة نبي الله موسى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾[1]، والثابت تاريخيا أن مدينة

(١) سورة القصص: من الآية ١٥.

فرعون موسى كان يقيم بها أقوام مختلطو الأجناس من المصريين وبني إسرائيل وغيرهم، ويؤكد ذلك تسمية «يثرب» باسم «المدينة»؛ لأنها جمعت قبائل العرب من المهاجرين والأنصار (الأوس والخزرج) بالإضافة إلى اليهود، يقول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾[1].

أما عن المدائن فقيل إنها جمع مدينة، وسميت مدائن كسرى بالمدائن لأنها كانت مكونة من عدة مدن متقاربة، وقد جاء ذكر المدائن في قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ ﴾[2]، كما قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[3].

- **البلد:** هو أي مجتمع عمراني مثل القرية أو المدينة، يقول سبحانه وتعالى واصفا مكة المكرمة أم القرى بالبلد: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾[4]، ويقول أيضا: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ ﴾[5]، ونستشعر هنا أن كلمة بلد تعبر عن المكان والسكان أي تدل على مجتمع عمراني.

أما البلدة فقد وردت في بعض آيات القرآن للدلالة على المكان فقط، حيث يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا ﴾[6]، والمقصود في الآية الكريمة تحريم مكة المكرمة على خلقه أن يسفكوا فيها دما حراما أو يظلموا فيها أحدا أو يصيدوا صيدها أو يقطعوا شجرها[7]،

---

(١) سورة التوبة: من الآية ١٢٠.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١١١.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٥٣.

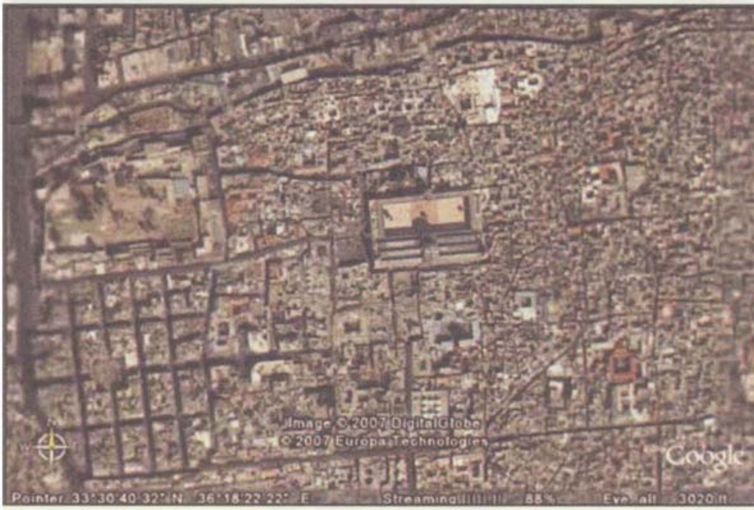
(٤) سورة البقرة: من الآية ١٢٦.

(٥) سورة البلد: الآيتان ١، ٢.

(٦) سورة النمل: من الآية ٩١.

(٧) نخبة من العلماء (١٤١٠ هجرية): التفسير الميسر، وزارة الأوقاف السعودية، ص٣٨٥.

كما قـــال جـل في عــلاه: ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[1]، وكمــا قــال: ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾[2]، إن لفظ البلدة اقترن بالمكان فقط.



الجامع الأموي يتوسط مدينة دمشق القديمة.

(١) سورة سبأ: من الآية ١٥.

(٢) سورة ق: من الآية ١١.



القاهرة الفاطمية بما تحويه من إرث معماري ضخم.

شكل (١٤): نماذج المناطق القديمة بالمدن الإسلامية.

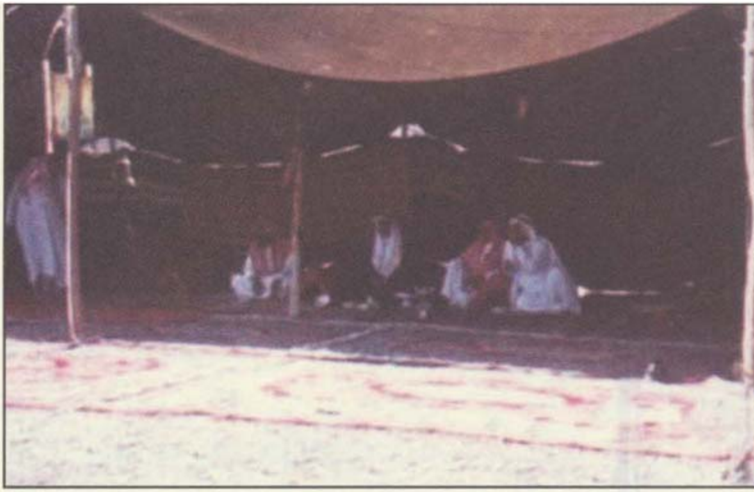
- **التجمعات البدوية:** يقول الله سبحانه وتعالى على لسان سيدنا يوسف: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾[١]، يخبرنا الله سبحانه وتعالى عن لقاء سيدنا يوسف بأبويه بعد أن طال غيابه عنهما، والشاهد في الآية الكريمة قوله: «وجاء بكم من البدو»، حيث إنهم كانوا أهل إبل وغنم ببادية فلسطين[٢].

(١) سورة يوسف: من الآية ١٠٠.

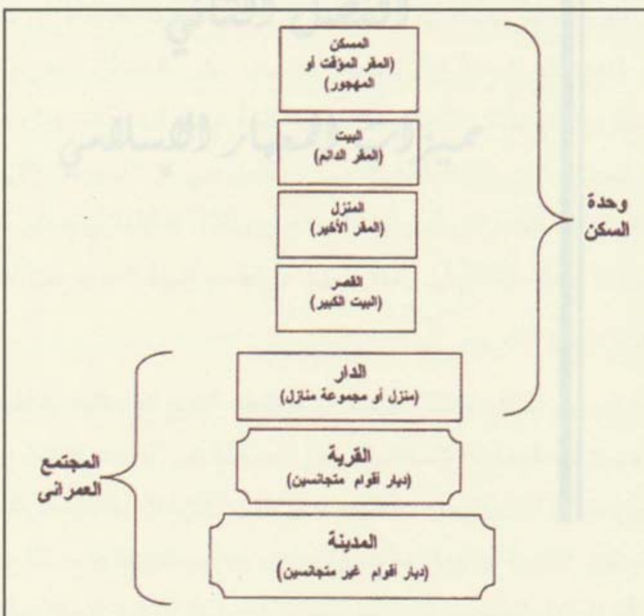
(٢) يحيى وزيري (التعمير في القرآن والسنة): مرجع سابق، ص١٨٣.

وفى الآية الكريمة إشارة إلى التجمعات البدوية في المناطق الصحراوية، وهي تجمعات قبائل البدو الرحل، فهي تختلف في تكوينها الاجتماعي عن مجتمع القرية أو المدينة، حيث تتميز بأسلوب خاص في أنماط المعيشة، علاوة على خصائص تركيبها من الناحية الاجتماعية والاقتصادية، كما أنها كانت تعتمد في الماضي بصفة أساسية على الخيام من جلد الحيوانات أو القماش كمأوى أساسي لهذه القبائل، شكل (١٥).

إن الاستعراض السابق للمفاهيم المعمارية والعمرانية التي وردت في آيات القرآن الكريم، انظر شكل (١٦)، يوضح لنا مدى شمولية حصر هذه العناصر إلى جانب دقة تحديد معانيها ومفاهيمها، وأن القرآن الكريم، بهذا الشمول والدقة، يكشف عن أحد جوانب إعجازه في مجال علوم العمران والبنيان، وبهذا يكون له السبق العلمي في هذا المجال بتوضيح أسس ومفاهيم هذا العلم، والتفرقة الدقيقة فيما بينها منذ حوالي أربعة عشر قرنا من الزمان، وهو ما لم يعرف عن الكتب السماوية الأخرى (التوراة أو الإنجيل) مع إيماننا الكامل بها، ومع إيماننا أيضا بأن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ القرآن الكريم إلى أن تقوم الساعة ويرث الله الأرض ومن عليها، ومصداقا لقوله سبحانه وتعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون» صدق الله العظيم.



شكل (١٥): نموذج بيت الشَّعر (مأوى البدو).



شكل (١٦): دقة وشمولية القرآن الكريم في التفرقة بين المفاهيم والمصطلحات المعمارية والعمرانية.

الفصل الثاني

مميزات المعمار الإسلامي

ناقشنا وأوضحنا في الفصل الأول من الكتاب الأسس العامة التى وردت في القرآن الكريم بخصوص عمارة الأرض، إلى جانب توضيح دقة القرآن الكريم في تحديد مفهوم العديد من المصطلحات المعمارية والعمرانية، والتي تعتبر مبادئ أساسية ثابتة يجب ألا تغيب عن المجتمع المسلم بكل فئاته، لأنها معنية بتحقيق هذه التوجيهات القرآنية.

وفي هذا الفصل نحاول أن ننتقل خطوة إلى الأمام عن طريق استنباط بعض الملامح والمميزات العامة، التي يمكن أن تميز المعمار الإسلامي عن غيره من معمار الحضارات الإنسانية الأخرى، وهذه المميزات هي التي جعلت للمعمار الإسلامي شخصية مستقلة ينفرد بها فى رؤيته الشاملة والصحيحة لعمارة الأرض.

وبالنهج المتبع نفسه في كل فصول الكتاب، فإننا حاولنا أن نستنبط بعض المميزات العامة والرئيسية، اعتمادا على القرآن الكريم بصفة أساسية وبالاستعانة بالأحاديث النبوية كلما تيسر لنا ذلك، ولا ندعي أن هذه المميزات التي ناقشناها في هذا الفصل هي كل المميزات التي يمكن أن يتصف بها العمران والبنيان الإسلامي، ولكننا حاولنا أن نعطي خطوطا ومميزات عامة، يمكن أن ينبثق منها أو ينضم إليها العديد من المميزات الأخرى.

فعلى سبيل المثال، فإننا اعتبرنا أن توظيف القيم الجمالية في المعمار هو أحد مميزات العمارة الإسلامية، كما أوضحنا فى المبحث الثالث من هذا الفصل، ولكن القارئ سوف يتضح له أن الرؤية الإسلامية للجمال لا تفصل بين تحقيق المنفعة أو الوظيفة وبين تحقيق جوانب الزينة والجمال، وهو ما يعني أن العامل الوظيفي أو النفعي معتبر أيضا في الرؤية الإسلامية لعمارة الأرض.

لقد جاء تركيزنا على ثلاث مميزات بعينها في مباحث هذا الفصل لسببين رئيسيين: أولهما للدور الكبير الذي أسهمت به في تشكيل عمارة المجتمعات الإسلامية وإعطائه شخصيته المتميزة في الماضي، وثانيهما لأن واقع المعمار فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة يؤكد تراجع هذا الإسهام بشكل يتراوح بين الإهمال المطلق أو النسبي.

ولتحقيق الهدف المرجو من هذا الفصل قسمناه إلى ثلاثة مباحث رئيسية، هي:

١- المبحث الأول: توجيه العمران والبنيان للقبلة.

٢- المبحث الثاني: توافق العمران مع الظروف البيئية.

٣- المبحث الثالث: توظيف الإبداع الجمالي في المعمار.

المبحث الأول

التوجه إلى القبلة وأثره على العمران والبنيان

في تقديمه لكتاب «تخطيط وعمارة المدن الإسلامية» يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة[1]: «ولعل من أبرز ما يميز الأنماط المعمارية الإسلامية، أنها تتمحور في بنائها وواجهاتها وهندستها ومرتفقاتها حول وجهة، أو بتعبير أدق نحو القبلة (المسجد الحرام)، أما في الأنماط العمرانية المعاصرة، أو في عمران المدن الحديثة، فلا وجهة ولا قبلة، ويصعب على الإنسان المسلم، وقد يجد عناء شديدا في تحديد القبلة، إذا خرج من المسجد وعبر الشارع ودخل المباني المعاصرة».

إن الكلمات الموجزة السابقة توضح أحد ضوابط العمران الإسلامي التي يغفلها المعمار الإسلامي المعاصر عند تخطيط المدن وتصميم المباني، اعتقاداً أو جهلا بعدم أهمية توجيه هذا العمران إلى جهة القبلة، بالرغم مما في هذا التوجه من الرموز والإشارات الدينية والعقائدية، إلى جانب تلافي العديد من المشاكل التصميمية وبخاصة في حالة المساجد، وهو ما سوف نوضحه فيما بعد عند مناقشة السلبيات الناتجة عن عدم توجيه العمران والمباني للقبلة.

أولا: أدلة التوجه للقبلة وعلاقة ذلك بالعمران والبنيان

قبل أن تصبح مكة المكرمة قبلةً للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، أوضحت بعض الروايات أن المسلمين بعد هجرتهم من مكة إلى المدينة المنورة كانت قبلتهم بيت المقدس، وظلوا يتوجهون إليه في صلاتهم ستة أو سبعة عشر شهرا، حتى أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم بالتوجه إلى مكة المكرمة.

---

(١) انظر: خالد عزب (١٩٩٧): تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، كتاب الأمة، عدد (٥٨)- السنة السابعة عشر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ص٢٣.

ولما أمر الله تعالى المؤمنين بالتحول من بيت المقدس إلى مكة المكرمة شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب (اليهود)، لأن اليهود كانوا يتجهون في صلاتهم إلى صخرة بيت المقدس، لذلك فقد أخبر القرآن الكريم عن حادثة تحويل القبلة في قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾[١].

ورد في تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ما يلي[٢]: «جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة وحاصل الأمر أنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس: فكان بمكة يصلى بين الركنين وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، وذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن تحويل القبلة نزل في مسجد بني سلمة فسمي مسجد القبلتين، وفى حديث نويلة بنت مسلم أنهم جاءهم الخبر بذلك وهم في صلاة الظهر، قالت: فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال، ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمري.

وقد روى الإمام أحمد عن علي بن عاصم عن حصين بن عبد الرحمن عن عمرو بن قيس عن محمد بن الأشعث عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنهم (يعني أهل الكتاب) لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام آمين».

إذن فعملية التوجه للقبلة التي ارتضاها الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام وسائر المسلمين، تعتبر إحدى

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٢.

(٢) انظر تفسير الآية ١٤٢ من سورة البقرة في (تفسير القرآن العظيم) للإمام ابن كثير.

النعم التي مَنَّ بها الله علينا حيث هدانا لتلك القبلة، أي المسجد الحرام بمكة المكرمة، في الوقت الذي ضل اليهود والنصارى عنها، لذلك فإن أهل الكتاب يحسدون المسلمين على اهتدائهم لهذه القبلة المباركة، وهذا من الوجهة الدينية والشرعية.

أما إذا نظرنا إلى التوجه للقبلة من وجهة تأثيرها على مباني المجتمع المسلم، فإننا نجد أن التوجه للقبلة أحد أهم الثوابت التصميمية الخاصة بعمارة المساجد مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[1]، فعلى ذلك يمكن أن نتخيل أن كل مسجد في شتى أنحاء المعمورة يحتل نقطة على محيط دائرة مركزها الكعبة، شكل (١٧) وتبعا لذلك يكون جدار القبلة هو أهم عنصر معماري في أي مسجد[2]، وبالتالي يصبح توجيه المسجد من الوجهة التجريدية هو المحدد لشخصية المسجد وليس مجرد عناصره الأخرى المختلفة.

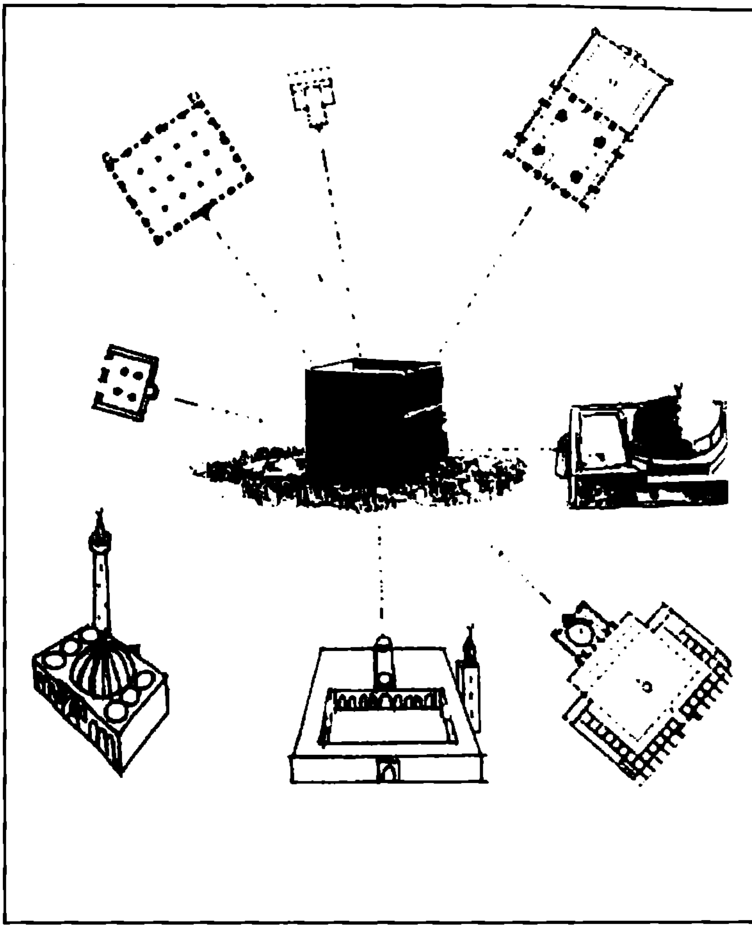
إن عملية أداء الصلاة لا تقتصر فقط على المساجد، فإن صلوات النوافل يمكن أن تؤدى في البيوت أيضا، وعملية أداء الصلاة في البيوت كانت موجودة عند بني إسرائيل عندما كانوا في مصر على عهد فرعون موسى، ويتضح لنا ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[3]، قال أكثر المفسرين في تفسير الآية الكريمة: «كان

---

(١) سورة البقرة: من الآية ١٤٤.

(٢) سيتم مناقشة هذه النقطة بشيء من التفصيل في المبحث الخاص بضوابط عمارة المساجد بالفصل الثالث.

(٣) سورة يونس: الآية ٨٧.



شكل (١٨): المساجد في مشارق الأرض ومغاربها تتجه إلى القبلة (مكة المكرمة).

بنو إسرائيل لا يصلون إلا في مساجدهم وكنائسهم وكانت ظاهرة، فلما أرسل موسى أمر فرعون بمساجد بني إسرائيل فخربت كلها ومنعوا من الصلاة، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم سرا، وذلك حين أخافهم فرعون فأمروا بالصبر واتخاذ المساجد في البيوت. وفي الشريعة الإسلامية فإن

صلاة النافلة في البيت أفضل من المسجد، وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام في حديث زيد بن ثابت: «عليكم بالصلاة في بيوتكم فإن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة» (أخرجه البخاري)[١].

وقال العوفي عن ابن عباس في تفسير الآية الكريمة السابقة[٢]: «قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة، وقال مجاهد: لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامعة أمروا أن يجعلوا في بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة[٣]، يصلون فيها سرًا، وكذا قال قتادة والضحاك».

مما سبق يتضح لنا أن فكرة جعل البيوت تجاه القبلة كانت موجودة بالفعل منذ عهد سيدنا موسى من أجل تسهيل إقامة الصلاة بداخلها لأتباعه الذين آمنوا برسالته، ثم يجيء رسولنا الكريم ليؤكد هذا المفهوم بقوله عليه الصلاة والسلام: «إن لكل شيء سيدا وإن سيد المجالس قبالة القبلة»[٤].

إذن فإنه يفضل أن يتم توجيه المباني، سواء السكنية أو العامة، جهة القبلة[٥]، وهو ما يساعد على أداء الصلوات داخل هذه المباني بسهولة، كما يحقق حديث رسولنا الكريم من أن سيد المجالس ما كان قبالة القبلة.

ونجد من الواجب أن نكرر هنا ما سبق أن ذكرناه في المبحث الخاص «بضوابط العمران والبنيان في قصص القرآن»، من أن الغاية من إعمار

---

(١) انظر تفسير الآية ٨٧ من سورة يونس في الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.

(٢) انظر تفسير الآية ٨٧ من سورة يونس في تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير.

(٣) قال بعض المفسرين إن قبلة اليهود في ذلك الوقت هي بيت المقدس.

(٤) رواه الطبراني بإسناد حسن.

(٥) يفضل في دورات المياه عدم استقبالها أو استدبارها للقبلة، انظر المبحث الخاص بضوابط عمارة المسكن الإسلامي المعاصر بالفصل الثالث.

الأرض وإقامة المجتمعات العمرانية والمدن هو عبادة الله سبحانه وتعالى وإقامة الصلاة، حيث يقول الله سبحانه وتعالى على لسان سيدنا إبراهيم أبي الأنبياء: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[1]، وهو ما يعني انعكاس ذلك بصورة مباشرة على التجمعات العمرانية بتوجيه شوارعها ومبانيها إلى القبلة.

ثانيا: ما الذى يخسره العمران الاسلامي بعدم توجهه إلى القبلة؟

ربما يتبادر هذا السؤال إلى ذهن البعض، وبخاصة أن المدن والمباني في المجتمعات الإسلامية ليس لها توجه محدد، اللهم إلا في بعض المشروعات التي تأخذ العوامل البيئية في الاعتبار، أو في المناطق المخصصة للمقابر والتي يحرص منفذوها على أن تكون هذه المقابر في اتجاه القبلة لسهولة دفن موتى المسلمين بالطريقة الشرعية.

الإجابة على السؤال السابق يمكن أن تكون ذات شقين أساسيين: الأول يتعلق بأشياء معنوية رمزية، والثاني يتعلق بأشياء مادية ذات أثر سلبي على عمران ومباني المجتمع الإسلامي، وسنوضح هذين الشقين فيما يلي:

أ- الأثر السلبي المعنوي والنفسي على المجتمع المسلم:

لكي نتفهم الأثر المعنوي والنفسي السلبي الناتج من عدم توجيه العمران الإسلامي للقبلة، فإنه يجب أولا أن نوضح أنه توجد علاقة مباشرة بين أسلوب تصميم المباني وتخطيط المدن وما يحمله العمران من دلالات، وبين تكوين ثقافة أفراد المجتمع وتوجهاتهم الفكرية، وذلك لأن فن العمارة له

---

(١) سورة إبراهيم: من الآية ٣٧.

وضع خاص ينفرد به عن باقي الفنون سواء كانت تشكيلية أو غيرها، فالمبنى الذي يقام في المدينة سيراه كل أفراد المجتمع جميلا كان أو قبيحا، أراد الناس رؤيته أم لم يريدوا، كما أنه قد يزيد من جمال البيئة الحضرية أو يسيئ إليها، ومن جانب آخر فإن العمارة تمثل واجهة صادقة لثقافة المجتمع والتي تعتبر محصلة لتفاعل ذكاء الإنسان وفكره ووجدانه مع البيئة التي يعيش فيها[١].

كما أن للعمران والمباني دوراً في تشكيل وبناء الإنسان بطريق غير مباشر لا يشعر به، لذلك فإن ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا في عهود سابقة له مقولة ذات دلالة في هذا السياق، وهى[٢]: «نحن نحدد أنماط مبانينا، ولكنها فيما بعد هي التي تحدد أنماط حياتنا».

وربما تتعدى أخطار العمران بما يحمله من إيحاءات ومدلولات ورموز التشكيل الوجداني ليشمل أيضا الجوانب الأخلاقية، ليصبح العمران انعكاسا لأخلاق العصر الذي بني فيه، وفي هذا المعنى يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله[٣]: «ولذلك إن أردت أن تعرف خلق وأخلاق أي عصر واستقامته أو آفاته في تصريف الحركة..فانظر إلى المعمار في هذا العصر».

وبالرجوع إلى الاجابة عن أثر الشق المعنوي والنفسي لعدم توجيه العمران الإسلامي للقبلة، فإننا نجد الإسلام يحرص كل الحرص على تميز شخصية المسلم وعدم تشبهه بالآخرين من أهل الملل الأخرى، إلى درجة أن الإسلام اعتبر من تشبه بقوم فهو منهم، وفي شأن القبلة بالذات فإن القرآن الكريم يؤكد على هذا التميز بين أهل الشرائع السماوية فيقول

---

(١) للمزيد من التفاصيل انظر كتابنا: المجتمع وثقافة العمران (٢٠٠٢)، مؤسسة دار الشعب، القاهرة.

(٢) دافيد مالين رودمان ونيكولاى لينسن (ترجمة: شويكار ذكى) (١٩٩٧): ثورة في عالم البناء، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ص ٦٥.

(٣) انظر جريدة اللواء الإسلامي: عدد ٩٦، سنة ١٩٨٣، القاهرة.

سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾[1]، فالآية الكريمة توضح للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بأنه لو جاء بكل حجة وبرهان لأهل الكتاب على أن توجهه إلى الكعبة في الصلاة هو الحق من عند الله، ما تبعوا هذه القبلة عنادا واستكبارا، وما هو بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض، وأن اتباع أهوائهم في شأن القبلة وغيرها بعد ما جاءهم من العلم يدخلهم في زمرة الظالمين، وفي هذا تهديد ووعيد لمن يتبع أهواء المخالفين لشريعة الإسلام[2].

لقد أوضح القرآن الكريم في شأن التوجه للقبلة أن أهل كل شريعة من الشرائع السماوية لهم القبلة الخاصة بهم، وما بعضهم بتابع قبلة بعض، ومن هنا فإن عدم توجيه العمران في المجتمعات الإسلامية للقبلة يفقد المسلمين التميز والتفرد الذي أراده الله سبحانه وتعالى لهم عن عمران ومباني أهل الشرائع الأخرى، شكل (١٩)، مع علمنا بمدى حرص أهل الشرائع الأخرى على عدم اتباع قبلة المسلمين مهما ظهر لهم من الحجج والآيات البينات.

إن عدم توجيه العمران الإسلامي جهة القبلة يفقد المجتمع المسلم أهم عوامل تميز شخصيته وتفرده من الناحية المعنوية والنفسية، حيث يشعر كل مسلم في أي مجتمع إسلامي بوحدة الاتجاه وبوجود رباط روحي دائم بينه وبين مكة المكرمة أم القرى، ليس في المسجد فقط أثناء أداء الصلاة ولكن أيضا في بيته ومكان عمله وفي جميع المباني التي يمارس فيها أنشطته الحياتية ما أمكن تطبيق ذلك.

---

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٥.

(٣) انظر: نخبة من العلماء : مرجع سابق، ص٢٢، بتصرف.



شكل (١٩): لقطة جوية لجزء من مدينة دبي توضح أن حي البستكية القديم كان موجَّها لاتجاه القبلة في حين أن المباني والأبراج الحديثة لم يراعَ فيها ذلك.

ب- الأثر السلبي المادي على العمران والبنيان:

أما إذا أردنا معرفة كيف يمكن أن يؤثر عدم التوجه للقبلة بطريقة سلبية على العمران والبنيان، فيجب علينا الرجوع إلى بعض الدراسات البحثية الحديثة التي توضح هذه الجوانب السلبية، ففي دراسة حديثة أجريت على ثمانية عشر مسجدا في مدينة «مومباى» (بومباي) بالهند[1]، وجد أن عدم توجيه وتخطيط شوارع المدينة للقبلة أدى إلى انحراف مدخل هذه المساجد عن حائط القبلة بعدة درجات تتراوح ما بين ٢ درجة و١٨٠ درجة. جدول (١).

(1) Taj, H.M. (1999). The influence of Qibla on street line orientation in Islamic Cities. Proceedings of the symposium on Mosque Architecture, Vol.3B, pp. 137-181, College of Architecture & Planning, King Saud Univ., Riyadh.

جدول (١): الفرق بين حائط القبلة ومدخل المسجد في بعض مساجد مدينة «بومباي» بالهند.

اسم المسجد	الفرق بين توجيه القبلة ومدخل المسجد (مقاسا بالدرجات).
مسجد ساني كوجا Sunni Khoja	صفر (لا يوجد تعارض)
مسجد جول Gol	2
مسجد إسماعيل حبيب	5
مسجد الرسول	8
مسجد مينارا Minara	41
مسجد حامدية	71
مسجد زكريا	32
مسجد كازى Kazi	82
مسجد كوجا اشناري Koja Ishnari	82
مسجد شافعي	93
مسجد جامى Jami	46
مسجد نوري Noori	09
مسجد دوني Dauni	901
مسجد موجل Mogul	311
مسجد كاترى Khatri	411
مسجد باندرا Bandra	081

إن الدراسة السابقة لا تمثل حالة خاصة بمدينة «مومباي» بالهند، فالبنظر إلى المخططات العمرانية الحديثة في العالم الإسلامي يُلاحظ في كثير من الأحيان تعارضُ اتجاه حائط القبلة مع باقي أضلاع قطعة الأرض المخصصة له، شكل (١٩)، والتي تعتبر جزءاً من المخطط الشبكي للمدينة ككل، وهو أسلوب تخطيطي يختلف عن التخطيط المتضام الذي كان متبعا في المدن الإسلامية القديمة، وهذه الحالة تنطبق على العديد من المساجد في الأحياء الحديثة من مدن العالم الإسلامي.

ويظهر الأثر السلبي لظاهرة عدم توجيه شوارع ومباني المدن الإسلامية لاتجاه القبلة بصورة أكبر، في المساجد صغيرة المساحة أو المخصصة لأداء الصلوات اليومية، حيث إن تعارض اتجاه حائط القبلة مع باقي أضلاع قطعة الأرض المخصصة للمسجد يؤدي إلى عدم تعامد الحائطين الجانبيين على حائط القبلة، وهو ما يفقد المصلي داخل هذه المساجد الإحساس باتجاه القبلة، كما يؤثر على شكل الفراغ الداخلي لقاعة الصلاة غير المنتظمة الأضلاع، كما يؤدى في غالب الأحيان إلى قِصَر الصفوف الأولى للمصلين الأقرب إلى جدار القبلة، مقارنة ببعض الصفوف الأخرى الأبعد عن جدار القبلة.

وما ينطبق على المساجد ينطبق على باقي مباني المدن المعاصرة ولكن بصورة ربما تكون أكثر سلبية، حيث لا يمكن التعرف على اتجاه القبلة داخل هذه المباني إلا بشق الأنفس وفي بعض الأحيان بأساليب يغلب عليها عدم الدقة، وكم عانى الكثير من المسلمين إذا أراد أحدهم الصلاة في بيته أو في غيره من البيوت الأخرى من تعارض أسلوب فرش الأثاث الداخلي مع وضع سجادة الصلاة جهة القبلة، كما أن عدم توجيه بيوت ومباني المسلمين جهة القبلة جعلت المسلمين في بيوتهم يفقدون ميزة التوجه للقبلة في أثناء الدعاء خارج الصلاة أو قراءة القرآن الكريم أو تلقي دروس العلم النافع وما شابه.

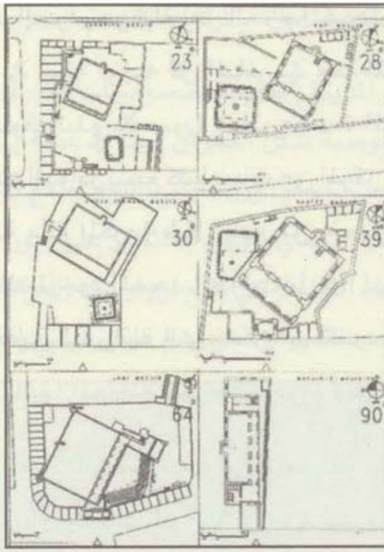
ثالثا: قضايا عمرانية تتعلق بالتوجه للقبلة

توجد بعض القضايا العمرانية التي يمكن أن تنشأ نتيجة توجيه العمران الإسلامي للقبلة، ورأينا من الواجب أن نلفت النظر إليها، وقد تخيرنا منها القضايا التالية:

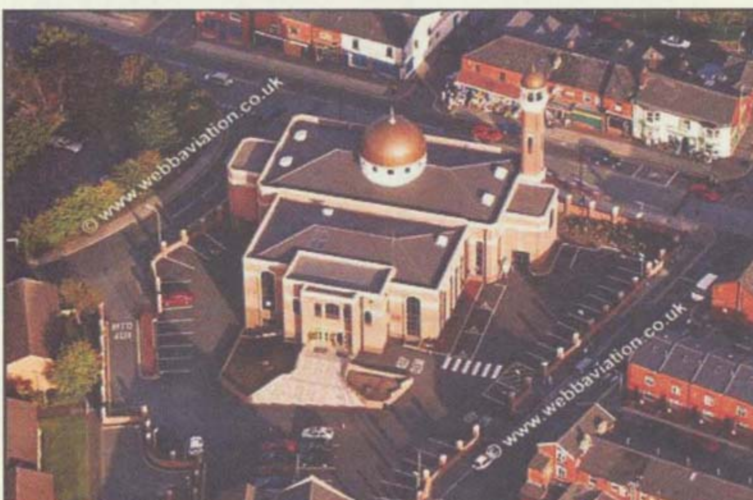
أ- خصوصية شكل العمران في مكة المكرمة:

مدينة مكة المكرمة اختارها الله سبحانه وتعالى لتكون قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فوضع فيها بيته الحرام الذي تفد إليه جموع المسلمين من جميع بقاع العالم لتؤدي شعائر الحج والعمرة. ولمكة المكرمة خصوصية تختلف عن باقي مدن المسلمين نتيجة لوجود بيت الله الحرام فيها، فلقد روى ابن جريج عن عطاء عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:«البيت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي»[١].

(١) انظر تفسير الآية ١٤٤ من سورة البقرة في الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.



نماذج لمساقط أفقية لمساجد فى مدينة «مومباي» بالهند تتعارض مع اتجاه قطع الأرض المخصصة لها.



تعارض توجيه مسجد «بولتون» فى مقاطعة لانكشير بإنجلترا مع قطعة الأرض والمحيط العمراني.

شكل (١٩): تعارض تخطيط الشوارع الحديثة مع اتجاه قبلة المساجد.

ولأن المسجد الحرام هو قبلة أهل الحرم المكي فإن هذا يعني من الناحية النظرية، أنه في حالة توجيه كل المباني في مكة المكرمة جهة القبلة، فإن هذه المباني سوف تبدو في صورة دوائر متحدة المركز (وهو هنا المسجد الحرام)، وهذه الدوائر تتسع كلما بعدت عن المركز، وهو ما يعني أن الشكل الدائري لمدينة مكة المكرمة شكل ينبع من خصوصيتها دون باقي المدن الإسلامية وذلك لوجود المسجد الحرام بها، لذا لزم التنبيه ولفت الأنظار لهذه الخصوصية العمرانية التي يمكن أن تنفرد بها أم القرى في حالة استقبال كل مبانيها المحيطة بالمسجد الحرام لجهته[١].

ولكن ربما لوجود المسجد الحرام في منطقة وادى منخفض تحيط به الجبال التي يصل ارتفاعها إلى حوالى ٣٠٠ متر فوق سطح البحر[٢]، فإن هذه الظروف الطبيعية تجعل عملية تشكيل العمران في مكة على هيئة دوائر تحيط بالمسجد الحرام عملية صعبة التنفيذ على مستوى كل المدينة في الواقع العملي، وإن كان يمكن تطبيق هذه الفكرة في المنطقة المنخفضة التي تحيط بالمسجد الحرام من جهاته المتعددة.

لقد قام الدكتور المصرى عبد الباقي إبراهيم، رحمه الله، بتقديم اقتراح تخطيطي لمنطقة المسجد الحرام عام ١٩٨٩م، لمنطقة قطرها ٧٥٠م مركزها الكعبة المشرفة بحيث تتجه نحوها كل الطرقات وتتوجه إليها كل القطاعات السكنية والخدمية، في محاولة جادة لتحقيق فكرة توجيه المباني المحيطة

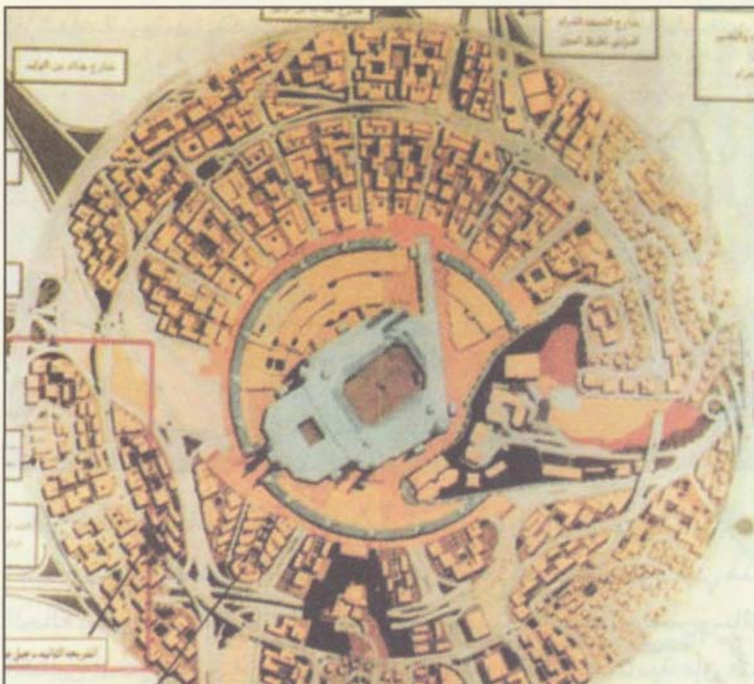
---

(١) انظر كتابنا: أم القرى خصوصية المكان والعمران (٢٠٠٥): كتيب المجلة العربية، رقم (١٠٢)، الرياض.

(٢) للمزيد من التفاصيل انظر: فؤاد عمر توفيق (١٩٨٦): أوضاع تخطيط الإسكان على سفوح الجبال بمدينة مكة المكرمة، كتاب أبحاث ندوة «الإسكان في المدينة الإسلامية» بأنقرة، منظمة العواصم والمدن الإسلامية، جدة، ص ١٢٧- ١٣٤.

بالمسجد الحرام إلى القبلة تماما[1]، شكل (٢٠).

ولا شك أن لعمران المدينة المقدسة خصوصيات أخرى، ولكننا أردنا أن نوجه الأنظار لخصوصية شكل العمران فيها في حالة إذا ما تم توجيه كل مبانيها جهة المسجد الحرام، وربما يأتي اليوم - مع توفر الإمكانيات المادية والتقنيات المناسبة - الذي يتمكن القائمون على أمور المملكة العربية السعودية من تحقيق هذه الأمنية التي تتيح لزوار بيت الله الحرام أن يكونوا باستمرار في اتجاه المسجد الحرام حتى وهم داخل مباني إقامتهم.



شكل (٢٠): مقترح تخطيطي للمنطقة المحيطة بالمسجد الحرام، بحيث تتجه شوارعها ومبانيها نحو الكعبة المشرفة (القبلة)، (من تصميم الدكتور عبد الباقي إبراهيم)

(١) عبد الباقى إبراهيم (٢٠٠٠): مشوار البحث عن أصول العمارة في الإسلام، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، القاهرة، ص٣٦.

ب- التعارض بين توجيه المباني للقبلة والظروف البيئية:

القضية الثانية التي أردنا أن نلفت النظر إليها هي إمكانية التعارض بين توجيه مباني مدينة ما إلى القبلة، مع الظروف والعوامل البيئية السائدة في المنطقة المقام فيها هذه المدينة، وبتفصيل أكثر فإن توجيه مباني مدينة ما في موقع معين لجهة القبلة ربما يتعارض مثلا مع الرياح الباردة المحببة التي تساهم في تخفيض درجات الحرارة ببيوت هذه المدينة في فصل الصيف مثلا، أو أن هذا التوجيه للقبلة يجعل واجهات المباني الخارجية أكثر عرضة للإشعاع الشمسي، فكيف يمكن التوفيق بين توجيه المباني للقبلة وعدم التكيف مع الظروف والعوامل البيئية في موقع معين؟.

إذا افترضنا على سبيل المثال أن توجيه بعض المباني جهة القبلة في موقع معين يتعارض مع توجيه فتحات هذه المباني للرياح المحببة السائدة في هذه المنطقة، فإن استخدام بعض الحلول المعمارية مثل ملاقف الهواء أو أبراج الرياح[1]، يسمح بالتقاط الهواء بالرغم من أن المبنى نفسه لا يواجه الرياح السائدة، شكل (٢١)، وذلك لأنه يتم توجيه فتحات ملاقف الهواء إلى الجهة التي تهب منها الرياح بالرغم من أن المبنى نفسه بغرفه وفراغاته الداخلية يتجه جهة القبلة.

أما إذا افترضنا أنه في موقع آخر أو مدينة أخرى أن توجيه المباني جهة القبلة يجعل واجهات هذه المباني أكثر تعرضا للإشعاع الشمسي، ففي هذه الحالة يمكن تقليل الفتحات الخارجية مع تضييقها أو استخدام بعض وسائل التظليل الخارجية، وفي حالة توافر المساحات والإمكانات المادية فإن فتح النوافذ الرئيسية لهذه البيوت على أفنية داخلية مكشوفة ومظللة في الوقت نفسه يساعد على التغلب على هذه المشكلة، إلى جانب توفير الخصوصية

---

(١) ملاقف الهواء وأبراج الرياح كانت تستعمل في المباني الإسلامية القديمة لالتقاط الرياح السائدة الباردة بكل منطقة (للمزيد من التفاصيل انظر كتابنا: العمارة الإسلامية والبيئة (٢٠٠٤): سلسلة عالم المعرفة- عدد٣٠٤، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص١١٦ وما بعدها).

لأهل البيت، وهو ما كان يتم اتباعه في مباني المدن الإسلامية القديمة.

إن ظهور بعض المشاكل على مستوى تخطيط المدن أو المباني بسبب توجيهها لجهة القبلة شيء متوقع، ولكن في سبيل إحياء إحدى السنن التي حض عليها رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام ولفت القرآن الكريم إليها الأنظار، فإن على المتخصصين في مجال تخطيط المدن وتصميم المباني أن يجدوا الحلول والابتكارات الهندسية لهذه المشاكل أو الصعوبات التي أشرنا لبعض منها، فالحاجة أم الاختراع.



شكل (٢١): نماذج من أبراج الرياح ببيوت حى البستكية القديم بدبى التي كانت تستخدم في التهوية، والتي يمكن الاستعانة بها فى تصميم المباني المعاصرة بعد تطويرها.

ج- أهمية تحديد اتجاه القبلة بدقة:

القضية الثالثة التي نعرض لها في هذا المحور تتعلق بوجوب حرص مخططي المدن ومصممي المساجد والمباني على تحديد اتجاه القبلة بدقة متناهية، لعدة أسباب مهمة، منها:

١- ما يتعلق بالنواحي الشرعية التي تجعل من التوجه للقبلة أثناء أداء

الصلوات أحد شروط صحتها، وهو ما يفرض على مصممي المساجد بصفة خاصة الحرص على تحديد اتجاه القبلة بدقة كبيرة، وهذا ينطبق أيضا على المباني السكنية التي يتم أداء صلوات النوافل بها للرجال وصلاة الفرض بالنسبة إلى النساء في حالة عدم ذهابهن لأدائها بالمساجد.

وجدير بالذكر هنا أن الخطأ في حساب اتجاه القبلة لدرجة واحدة فقط تبعد اتجاه المصلي إلى اتجاه يشير إلى مكان يبعد عن القبلة ١٠٣,٥٠ كم تقريبا، والدقيقة الواحدة تبعده ١,٧٠ كم[١]، لذلك يجب توخي الدقة في إجراء الحسابات الخاصة باتجاه القبلة وطريقة تحديدها.

ب- ما يتعلق بتأثير ذلك التحديد على المحيط العمراني ككل، فمن الأمثلة المهمة التي توضح مدى تأثير المسجد على محيطه وبيئته العمرانية ما يمكن أن يتضح من تأثير اختيار اتجاه القبلة لجامع الزيتونة بمدينة تونس التاريخية، والذي انعكس أيضا على توجيه باقي المساجد بها، فعلى الرغم من أن توجيه جامع الزيتونة كان غير دقيق هندسيا، حيث تم توجيهه مائلا ٢٩ درجة و ١١ دقيقة عن الاتجاه الصحيح للقبلة، فإن توجيه جامع الزيتونة سيطر على توجيه كل المباني الدينية والتي بنيت بعد ذلك[٢]، شكل (٢٢)، لذلك من الأهمية بمكان أن نلاحظ أنه بالرغم من أن التحديد الدقيق لاتجاه القبلة مهم جدا، فإنه بمجرد أن يتم تحديد اتجاه القبلة لمسجد جامع يتم بناؤه قبل تشكيل البيئة العمرانية المحيطة، فإن تأثيره يتعدى الدقة الهندسية ليؤثر في كل محيطه العمراني والمعماري.

لقد أولى علماء المسلمين في الماضي مسألة تحديد اتجاه القبلة اهتماما كبيرا، وكانت ذروة الإنجازات الإسلامية في مجال تحديد اتجاه القبلة

---

(١) محمد أحمد سليمان (١٩٩٩): سباحة فضائية في آفاق علم الفلك، مكتبة العجيري، الكويت، ص٥٠٥.

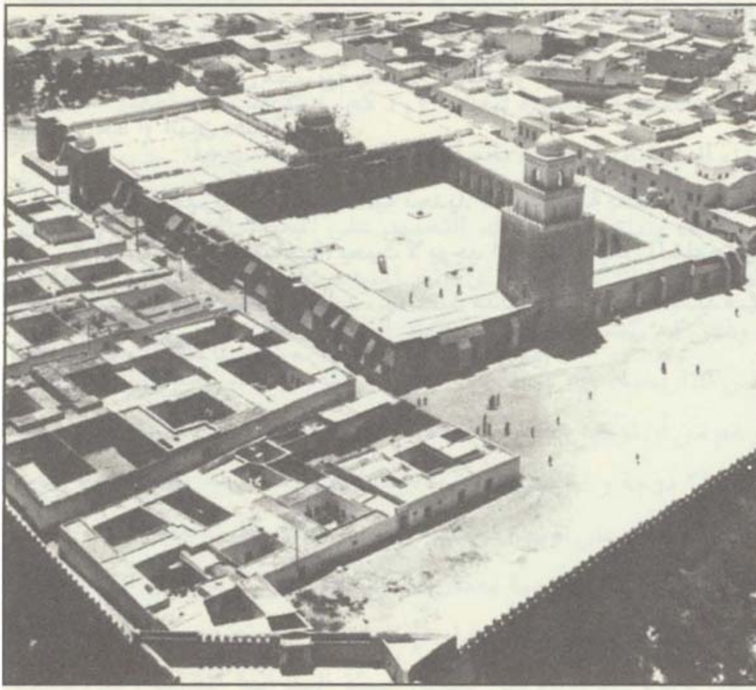
(٢) صادق أحمد صادق (١٩٩٩): التشكيل الفراغي وتأثيره على علاقة المسجد بالبيئة العمرانية، من سجل ندوة عمارة المساجد (ج٣)، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض.

تتمثل في عمل عالم الفلك الخليلي (تألق في دمشق حوالي ١٣٦٥م)، فقد وضع جدولا لاتجاه القبلة على أساس معادلة دقيقة، ويبين جدول الخليلي اتجاه القبلة لكل درجة من خط العرض بدءا من ١ درجة حتى ٥٦ درجة، ولكل درجة من خط الطول بدءا من ١ درجة حتى ٦٠ درجة، وبهذا يحتوى جدول الخليلي على مداخل يبلغ عددها ٣٠٠٠ مدخل تقريبا، وقد حسب اتجاه القبلة بالدرجات والدقائق، ويعتبر إنجازا رائعا أن تكون الغالبية العظمى من هذه المداخل محسوبة بمنتهى الدقة، أو بخطأ في حدود زائد أو ناقص واحد أو اثنين دقيقة[1].

لقد وفرت الأجهزة الحديثة إمكانية تحديد اتجاه القبلة بالنسبة إلى أي مبنى في أي موقع بدقة متناهية، بحيث لا يوجد أي سبب يجعل المسلمين في العصر الحديث يتقاعسون عن البدء في تنفيذ مدنهم ومبانيهم الجديدة في اتجاه القبلة، لما في ذلك من مزايا متعددة تعود عليهم.

---

(١) دونالد هيل (ترجمة: أحمد فؤاد باشا) (٢٠٠٤): العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة- عدد (٣٠٥)، المجلس الوطني للثقافة والعلوم والآداب، الكويت، ص٦٦.



شكل (٢٢): تأثير توجيه مسجد الزيتونة بتونس على توجيه المباني والمساكن المجاورة له.

المبحث الثاني

توافق العمران مع الظروف البيئية

يهتم علم التصميم البيئي، وهو أحد فروع علم العمارة، بدراسة العناصر البيئية والمناخية التي تؤثر على تصميم المباني والفراغات الخارجية من أجل تهيئة وتوفير المناخ المناسب لراحة الإنسان سواء داخل المباني أو في الفراغات الخارجية في المحيط العمراني[1].

وبدراسة العديد من الآيات القرآنية تبين لنا أن القرآن الكريم قد لفت أنظار المسلمين إلى أهمية مراعاة العوامل البيئية في التصميم العمراني والمعماري، لذلك فإن هذا المبحث يهدف إلى إبراز المفاهيم التي وردت في بعض الآيات القرآنية ذات الصلة بمجال التصميم البيئي، وهو ما يؤكد على أن مراعاة البعد البيئي هو أحد الضوابط التي يجب مراعاتها في العمران الإسلامي.

إن القرآن الكريم لم يغفل الإشارة إلى أحد أهم أهداف علم التصميم البيئي، التي يسعى المصممون إلى توفيرها في المباني أو الفراغات الخارجية، وهذا الهدف ينحصر في محاولة جعل درجات الحرارة داخل المباني أو في الفراغات الخارجية حولها في حدود معينة لا تقل أو تزيد عنها، وذلك باستخدام أساليب تصميمية معينة.

ونلمح المعنى المشار إليه أعلاه في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ ﴾[2]، يقول ابن كثير (رحمه الله) في شرح معنى قوله تعالى: «لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا»،

---

(١) يحيى وزيري (٢٠٠٤). دلائل الإعجاز العلمي في إشارات التصميم البيئي في القرآن الكريم، كتاب أبحاث المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة بدبي، المجلد الثالث، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مكة المكرمة.

(٢) سورة الإنسان: آية ١٣.

أي ليس عندهم حرٌّ مزعج ولا بردٌ مؤلم بل هو مزاج واحد دائم سرمدي لا يبغون عنها حولا[١]، كما جاء في التفسير الميسر أن المقصود[٢]: «لا يرون فيها حر شمس ولا شدة برد»، والزمهرير في اللغة هو شدة البرد[٣].

إن الآية الكريمة السابقة تشير إلى الحالة التي سوف يكون عليها أهل الجنة، فليس عندهم حر مزعج أو برد مؤلم، وهو ما يتطابق مع تعريف مصطلح «الراحة الحرارية» الموجود في علم التصميم البيئي، والذي ينص على أن الراحة الحرارية هي حالة العقل التي يشعر فيها الإنسان بارتياح ورضا فيما يتعلق بالبيئة الحرارية الموجود فيها[٤]، فأي إنسان عادى لا يشعر بالراحة الحرارية إذا زادت أو قلت درجة الحرارة عن حدود معينة، أي أنه لا يشعر بالراحة في درجات الحرارة العالية كما لا يشعر بالراحة أيضا في حالات البرودة الشديدة.

فإذا كانت درجة حرارة الهواء أعلى من درجة حرارة البشرة فإن الحرارة المتولدة من الجسم تجد صعوبة في الخروج وينتج عن ذلك ارتفاع في درجة حرارة البشرة ونشاط الغدد التي تفرز العرق، ويمكن أن يصل معدل إفراز العرق إلى ٤ لترات/ساعة، وهو ما يسبب إرهاقا لا يمكن احتماله إلا لفترة قصيرة، أما في حالة انخفاض درجة حرارة البيئة المحيطة عن الحد المناسب فإن الاستجابة الفسيولوجية الأولى لذلك انقباض الشعيرات الدموية تحت الجلد وبالتالي يقل اندفاع الدم إلى البشرة، وهو ما يؤدي إلى برودة الشعيرات وخاصة اليدين والقدمين، وتحدث رعشة لا إرادية

---

(١) انظر تفسير الآية رقم (١٣) من سورة الإنسان في كتاب "تفسير القرآن العظيم" للإمام الحافظ ابن كثير.

(٢) انظر تفسير الآية رقم (١٣) من سورة الإنسان في كتاب "التفسير الميسر" (إعداد نخبة من العلماء) : مرجع سابق.

(٣) انظر: الفيروزآبادى (١٩٧٧): القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

(4) Goulding, J.R. (1986). Energy in Architecture. Commission of the European communities, Dublin.

في حالات البرد الشديد (الزمهرير)، ويزيد معدل الاحتراق إلى مرتين أو ثلاث مرات[1].

فإذا كانت الجنة تمثل البيئة المثالية بكل ما فيها من متع ونعيم مقيم، فإن الآية الكريمة تضيف متعة الراحة «الحرارية» أيضا، أي لا يرى في الجنة شدة حر كحر الشمس ولا زمهريرا أي ولا بردا مفرطا، وفي الوقت نفسه فإن الآية الكريمة تلفت النظر – وبشدة- إلى أن الهدف النهائي هو توفير الراحة لأهل الجنة، وهو ما يلفت نظر المصممين إلى أهمية العمل على توفير هذه الراحة بقدر المستطاع في مباني أهل الأرض تأسيا ببيئة الجنة المثالية التي هي فوق خيال البشر.

ثم تأتي العديد من الآيات القرآنية الأخرى لتوضح وتبين للبشر كيف يمكن لهم أن يصلوا إلى هذه الغاية، وهى مراعاة العوامل البيئية في التصميم ووسائل تحقيق الراحة الحرارية سواء في المباني أو الفراغات الخارجية وهو ما نسعى إلى توضيحه في المحاور التالية:

أولا: مراعاة اختيار مواقع التجمعات العمرانية

من خلال بحثنا في آيات القرآن الكريم عن ضوابط العمران والبنيان، وجدنا أن إحدى الآيات الكريمة قد أشارت بطريق غير مباشر إلى علاقة وتأثير العوامل البيئية في اختيار مواقع المدن والتجمعات العمرانية، حيث يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ ﴾[2].

---

(١) شفيق العوضي الوكيل، ومحمد عبدالله سراج (١٩٨٥): المناخ وعمارة المناطق الحارة، القاهرة، ص١٦٦.

(٢) سورة سبأ: الآية ١٥.

قال عبد الرحمن بن زيد في تفسير الآية الكريمة السابقة[1]: «إن الآية التي كانت لأهل سبأ في مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة قط ولا ذباباً ولا برغوثاً ولا قملةً ولا عقرباً ولا حية ولا غيرها من الهوام، وإذا جاءهم الركب في ثيابهم القمل والدواب، فإذا نظروا إلى بيوتهم ماتت الدواب، وقيل: بلدة طيبة ليس فيها هوام لطيب هوائها».

إن الآية الكريمة تلفت النظر إلى أهمية اختيار مواقع المدن والتجمعات العمرانية من حيث المناخ الجيد والهواء الطيب، كما تلفت النظر إلى علاقة وجود الجنات الأرضية وتأثيرها على تحسين مناخ هذه التجمعات، فلقد أشارت الآية إلى وجود جنتين عن يمين وشمال مساكن بلدة سبأ، وهو مما يلفت نظر المصممين إلى أهمية تواجد الحدائق في التجمعات العمرانية كعنصر جمالي وبيئي في الوقت نفسه، كما يجب ألا نغفل دور إحاطة المساكن عن يمينها وشمالها بالحدائق لأنه يحميها من الرياح المحملة بالرمال في حالة هبوبها على هذه التجمعات السكنية، شكل (٢٣).

وفى آية كريمة أخرى، يلفت القرآن الكريم أنظارنا إلى أهمية دراسة الموقع قبل بناء المبنى، وذلك للاستفادة من ظروف البيئة، ونلمح ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴾[2]، أي اتخذت من جانب الشرق وهو المكان الذى تشرق فيه الشمس، وإنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق من حيث تطلع الأنوار، وكانت الجهات الشرقية من كل شيء أفضل من سواها، حكاه الطبري[3].

إن عملية تحديد علاقة الأماكن أو الفراغات العمرانية والمعمارية بالجهات الأصلية لها أهمية قصوى، لأن ذلك سوف يؤثر على الأسلوب الذى تتعرض له هذه الأماكن للإشعاع الشمسي أو الرياح السائدة بكل منطقة،

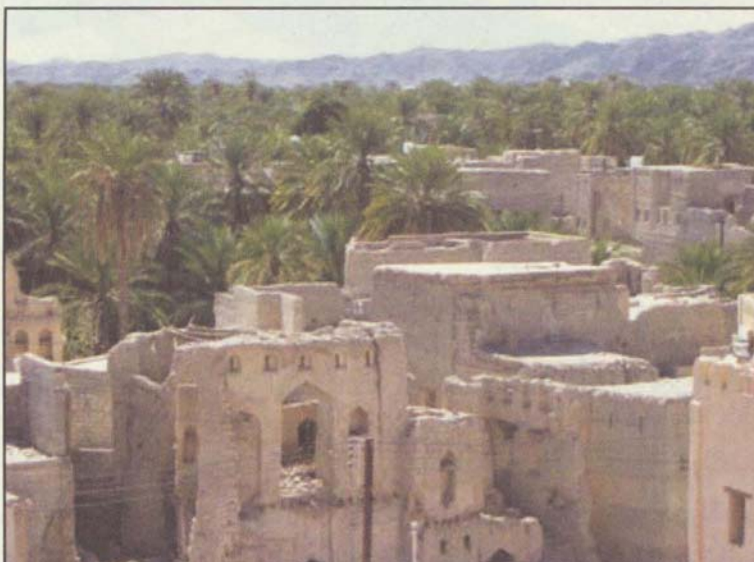
(١) انظر تفسير الآية ١٥ من سورة سبأ في الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.

(٢) سورة مريم: الآية ١٦.

(٣) انظر تفسير الآية ١٦ من سورة مريم في الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.

شكل (٢٤)، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة بطريق غير مباشر حيث أوضحت أن مريم انتبذت مكانا شرقيا من حيث تطلع الأنوار في الصباح، وكما نعرف الآن فإنه ينصح بالتعرض للشمس عند طلوعها قبل أن ترتفع في السماء وتشتد أشعتها لما في هذا التعرض من فوائد صحية جمة[١].

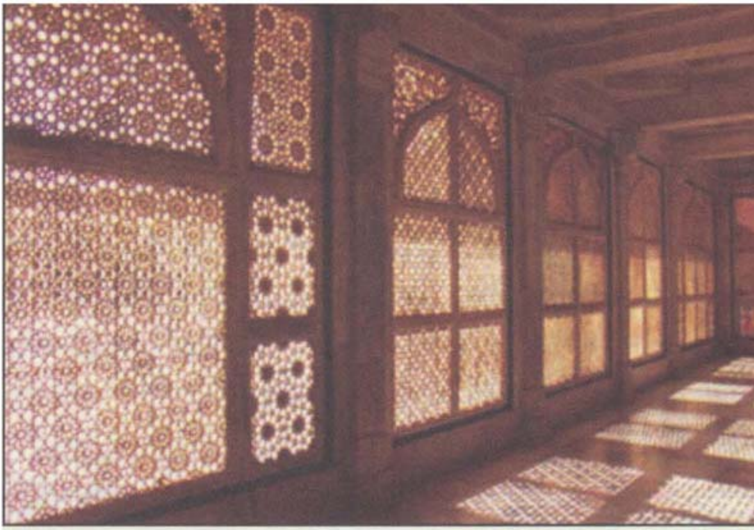
لقد أراد القرآن الكريم أن ينبه إلى أهمية وعلاقة التجمعات العمرانية أو المباني بالبيئة، سواء كان ذلك في أسلوب اختيار أماكنها أو في علاقتها بالجهات الأصلية، وهي أشياء توضح اهتمام الإسلام بالبعد البيئي عند إقامة التجمعات العمرانية.



شكل (٢٣): إحاطة أشجار النخيل بمنطقة «نزوى» القديمة في سلطنة عمان.

---

(١) للمزيد من التفاصيل انظر: يحيى وزيري (٢٠٠٣).. التصميم المعماري الصديق للبيئة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص ١١٨ وما بعدها.



شكل (٢٤): استعمل المسلمون الوحدات الزخرفية الضيقة في النوافذ لكسر حدة أشعة الشمس.

ثانيا: أهمية الظلال كأحد وسائل تحقيق الراحة الحرارية

سبق أن أشرنا في بداية هذا المبحث إلى أن الهدف الأساسي لعلم التصميم البيئي هو تحقيق الراحة الحرارية في المباني أو في الفراغات الخارجية، وتوجد وسائل وإستراتيجيات تصميمية متعددة لتحقيق هذا الهدف، ومن أهم هذه الوسائل وأنجحها توفير الظلال.

وبدراسة الآيات القرآنية التي تحدثت عن الظلال، نجد أن القرآن الكريم ينهج نهجا رائعا في لفت النظر إلى أهمية الظلال، ففي البداية نرى أن الله يلفت نظر عباده إلى الظل كظاهرة طبيعية مشاهدة لها خصائص معينة، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾[1].

(١) سورة الفرقان: الآيتان ٤٥، ٤٦.

إن الآية الكريمة توضح بعض خصائص الظل في الامتداد والإنقباض وعلاقة هذا بانخفاض الشمس أو ارتفاعها في السماء على مدار اليوم، إن مراد الآية الكريمة لفت الأنظار إلى ظاهرة الظلال كظاهرة طبيعية تستحق التدبر والدراسة.

والظل في اللغة نقيض الضح (بالكسر)، أو هو الفيئ أو هو بالغداة والفيئ بالعشي، ومكان ظليل ذو ظل، والظلة شيء كالصفة يستتر به من الحر والبرد، والظلال والمظلة (بالكسر والفتح) الكبير من الأخبية، والظليلة مستنقع الماء في أسفل مسيل الوادي والروضة الكثيرة الحرجات، والظلل الماء تحت الشجر لا تصيبه الشمس[1]، وفي المعجم الوجيز[2]: «الظل هو ضوء الشمس إذا استترت عنك بحاجز، والظليل ذو الظل، ويقال: ظل ظليل أي دائم».

ثم في آية أخرى يوضح القرآن أن الظلال هي إحدى نعم الله سبحانه وتعالى للبشر، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾[3]، أورد الإمام القرطبي (رحمه الله) في تفسير الآية الكريمة ما يلي[4]: «لما كانت بلاد العرب شديدة الحر وحاجتهم إلى الظل كبيرة فقد أوضح الله سبحانه وتعالى أن الظلال إحدى نعمه التي مَنّ بها على بني البشر، فالله سبحانه وتعالى قد خلق للبشر الأشجار التي توفر الظلال كما جعل من الجبال مواضع للسكنى كالكهوف (كما في كهف أهل الكهف) يلجأ إليها الإنسان

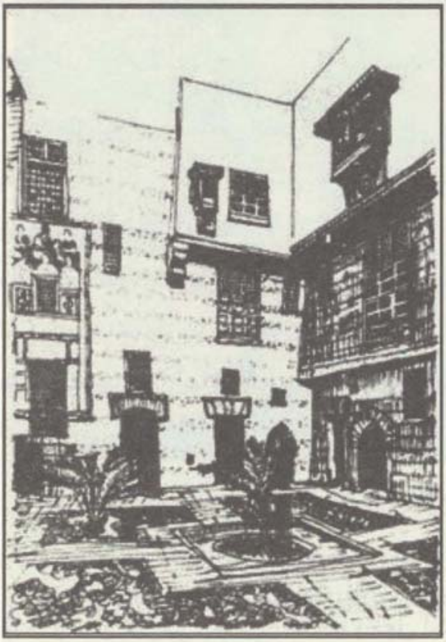
(١) انظر الفيروزآبادي: مرجع سابق.

(٢) انظر المعجم الوجيز: مرجع سابق.

(٣) سورة النحل: الآية ٨١.

(٤) انظر تفسير الآية (٨١) من سورة النحل في كتاب «الجامع لأحكام القرآن» للإمام القرطبي.

طلبا للظل والحماية، كما ألهمهم اتخاذ الأبنية حماية لهم من الحر والبرد وطلبا للظل»، شكل (٢٥).





استخدام البروزات فى واجهات المساكن الإسلامية لزيادة كمية التظليل.





سوق الخيامية المغطى بالقاهرة القديمة.

شكل (٢٥): يعتبر تظليل المباني والشوارع من أهم عوامل خفض درجة الحرارة.

أما الإمام ابن كثير -رحمه الله- فقد أورد في تفسير الآية الكريمة ما يلي[1]: «(والله جعل لكم مما خلق ظلالا) قال قتادة: يعني الشجر، (وجعل لكم من الجبال أكنانا) أي حصونا ومعاقل، كما (جعل لكم سرابيل تقيكم الحر)، وهي الثياب من القطن والكتان والصوف، (وسرابيل تقيكم بأسكم) كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك، (كذلك يتم نعمته عليكم) أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عونا لكم على طاعته وعبادته (لعلكم تسلمون).

وقال قتادة في قوله (كذلك يتم نعمته عليكم): هذه السورة تسمى سورة النعم. وقال عطاء الخراساني: إنما أنزل القرآن على قدر معرفة العرب، ألا ترى إلى قوله تعالى (والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا)، وما جعل من السهل أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب جبال، ألا ترى إلى قوله (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين) وما جعل لهم من غير ذلك أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب وَبَر وشَعر، ألا ترى إلى قوله تعالى (سرابيل تقيكم الحر) وما تقي من البرد أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب حر»؟!

ثم تأتي آية كريمة أخرى لتوضح، بأسلوب واضح مباشر، أهمية الظلال من ناحية توفير الراحة الحرارية، لأن الظل لا يستوى والحر، فيقول جل في علاه: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾[2]، إن الآية الكريمة تؤكد وتنبه على حقيقة يلمسها جميع البشر حيث يشعرون بالفرق الكبير بين الأماكن المظللة والأماكن المعرضة للشمس والحر.

---

(١) انظر تفسير الآية (٨١) من سورة النحل في كتاب «تفسير القرآن العظيم» للإمام الحافظ ابن كثير.

(٢) سورة فاطر: الآيات من ١٩ إلى ٢١.

وفي آية قرآنية أخرى يتم التنبيه على الأهمية القصوى للظلال لدرجة أنها تصبح إحدى المتع التي أعدها الله لعباده الصالحين بالجنة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ ﴾[(١)]، قال الضحاك والسدي وأبو حرزة في قوله تعالى: «وظل ممدود» لا ينقطع ليس فيها شمس ولا حر مثل قبل طلوع الفجر، وقال ابن مسعود: الجنة سجسج كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس[(٢)].

وفي الصحيحين من حديث أبى الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لايقطعها، فاقرءوا إن شئتم وظل ممدود». وفي الصحيحين أيضا من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لايقطعها»[(٣)].

ومن اللافت للنظر أن الآية الكريمة قد ربطت ما بين الظل الدائم ووجود الماء الجاري، وهو ما يؤدى إلى زيادة التقليل في درجات الحرارة وهو ما أثبتته العديد من التجارب العلمية الحديثة[(٤)]. لقد أعطت الآية الكريمة نموذجاً مثالياً للتصميم البيئي حيث الجمع بين الظلال والماء، وهو ما يفسر حرص المسلمين الأوائل على وجود النوافير والبحيرات المائية داخل أفنية المباني والبيوت الإسلامية، وفي الحدائق الخارجية المحيطة بها

---

(١) سورة الواقعة: الآيات من ٢٧ إلى ٣١.

(٢) انظر تفسير الآية ٣٠ من سورة الواقعة في تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير.

(٣) الإمام ابن قيم الجوزية (بدون تاريخ): حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، دار عمر بن الخطاب للتوزيع والنشر، القاهرة، ص١٣٦.

(٤) انظر على سبيل المثال:

*Yehia Wazeri (2001). The natural cooling system…an approach for improving the thermal performance of buildings in North Africa (Ph.D.). Institute of African Research and Studies, Cairo University, pp. 95-97.

بهدف خفض درجات الحرارة، إلى جانب تحقيق العامل الجمالي أيضا[1]، شكل (٢٦).

إن حرص القرآن الكريم على لفت الأنظار إلى أهمية الظلال في عمليات التصميم البيئي له شقان: الأول منهما يؤكد على أهمية العلاقة بين العوامل البيئية والعمران والبنيان الإسلامي، والثاني يوضح أن هذا التأكيد والحرص على أهمية الظلال يتفق مع القياسات العلمية الحديثة التي توضح أثر توفير الظلال في خفض درجات الحرارة داخل المباني والفراغات الخارجية المكشوفة[2].

ثالثا: نموذج قرآني يوضح فكرة التصميم البيئي

خلال بحثنا في القرآن الكريم عن الآيات التي تبرز أهمية البعد البيئي في العمران والبنيان، وجدنا أحد الأمثلة المهمة التي توضح أحد جوانب الفكر البيئي في التصميم المعماري، ونقصد هنا تحديدا الوصف الوارد بسورة الكهف لعلاقة حركة الشمس بالكهف الذى لجأ إليه الفتية المؤمنون، ويصف لنا سبحانه وتعالى هذة العلاقة في قوله:

﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾[3]

(١) للمزيد من التفاصيل انظر: يحيى وزيري (العمارة الإسلامية والبيئة): مرجع سابق، ص١٣٢، ص ٢١٧، ٢١٨.

(٢) تعتبر عملية تظليل المباني أو الفراغات الخارجية أحد أهم مبادئ علم التصميم البيئي، وحتى يمكن إدراك أهمية إيجاد وتوفير الظلال خاصة بالمناطق الحارة فإن بعض الدراسات أوضحت أن تظليل الشوارع يؤدي إلى انخفاض في درجة الحرارة يقدر بحوالي ٤ درجات مئوية، وفي قياسات تمت على بعض أفنية المنازل الإسلامية القديمة بالقاهرة اتضح أن درجات الحرارة داخل هذه الأفنية المعرضة للظل تقل بحوالي ٤ إلى ٧ درجات مئوية عن درجة حرارة سطح المنزل المعرض للشمس.

(٣) سورة الكهف: الآية ١٧.





شكل (٢٦): استخدام الماء بصوره المتنوعة لترطيب الجو في حديقة الأزهر الجديدة بالقاهرة.

يقول ابن كثير - رحمه الله - في شرح الآية الكريمة[١]: «إن هذا دليل على أن باب هذا الكهف المذكور كان من نحو الشمال؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه (ذات اليمين) أي يتقلص الفيئ يمنة، كما قال ابن عباس وسعيد ابن جبير وقتادة: (تزاور) أي تميل وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان، ولهذا قال (وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال)، أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه وهو من ناحية المشرق، فدل على صحة ما قلناه وهذا بينٌ لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية المشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة (يقصد الجنوب) لما دخل منها شيء عند الطلوع و لا عند الغروب ولا تزاور الفيئ يمينا ولا شمالا، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب، فتعين ما ذكرناه ولله الحمد.

وقال مالك عن زيد بن أسلم: تميل (ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه) أي في متسع منه داخلا بحيث لا تصيبهم إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم قاله ابن عباس، (ذلك من آيات الله) حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم».

ويقول الإمام الشوكاني - رحمه الله - في تفسير الآية الكريمة[٢]: «للمفسرين في تفسير هذه الآية قولان: الأول: أنهم مع كونهم في مكان منفتح انفتاحا واسعا في ظل جميع نهارهم ولا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا في غروبها لأن الله حجبها عنهم، والثاني: أن باب الكهف كان مفتوحا جهة

(١) انظر تفسير الآية (١٧) من سورة الكهف في كتاب «تفسير القرآن العظيم» للإمام الحافظ ابن كثير.

(٢) انظر تفسير الآية (١٧) من سورة الكهف في كتاب «فتح القدير» للإمام الشوكاني.

الشمال، فإذا طلعت الشمس كانت عن يمين الكهف وإذا غربت كانت عن يساره».

إن الشاهد من الآيـة الكريمة السابقة أنها تلفت النظر إلى علاقة حركة الشمس بكهف الفتية المؤمنين[١]، وهى بذلك تلفت النظر بطريقة غير مباشرة إلى أهمية دراسة العلاقة بين توجيه المبنى والإشعاع الشمسي الواصل إليه، لما في ذلك من تأثير كبير على تعرض واجهات المباني من الخارج لهذا الإشعاع على مدار العام، وهو ما يؤثر على فراغات المبنى من الداخل عن طريق دخول الإشعاع الشمسي من فتحات المبنى الخارجية.

لقد أوضح المفسرون، جزاهم الله خيرا، أهمية توجيه فتحة الكهف بحيث لا يتعرض مَنْ بداخله للإشعاع الشمسي المباشر بل يكون في الظل أغلب الوقت، وهذا الهدف هو أحد أهداف عملية التصميم البيئي خاصة في المناطق الحارة والتي تركز على استراتيجيتين أساسيتين بالنسبة إلى علاقة المبنى بالإشعاع الشمسي، وهما[١]:

١- في الصيف: تقليل التعرض للإشعاع الشمسي.

٢- في الشتاء: العمل على زيادة اكتساب الإشعاع الشمسي.

وفي دراسة ميدانية للمؤلف على أحد الكهوف الموجودة في الأردن بمنطقة تسمى «الرقيم»، تقع على بعد حوالي ١٢ كم جنوب شرق العاصمة الأردنية عمان، رجح أن هذا هو الكهف الذى ورد ذكره فى سورة الكهف، لوجود

---

(١) لقد زار الباحث أحد الكهوف بالقرب من عمان بالأردن وقام بدراسة حركة الشمس ورسمها بالنسبة لهذا الكهف، وأثبت أن هذا الكهف هو الكهف المذكور في سورة الكهف إلى جانب استناده إلى العديد من الأدلة التاريخية والأثرية والجيولوجية الأخرى. (للمزيد من التفاصيل انظر: يحيى وزيري (دلائل الإعجاز في إشارات التصميم البيئي في القرآن الكريم): مرجع سابق.

(٢) انظر على سبيل المثال:

* Watson , D. (١٩٨٣). Climatic design. McGraw- Hill Book Company, New York.

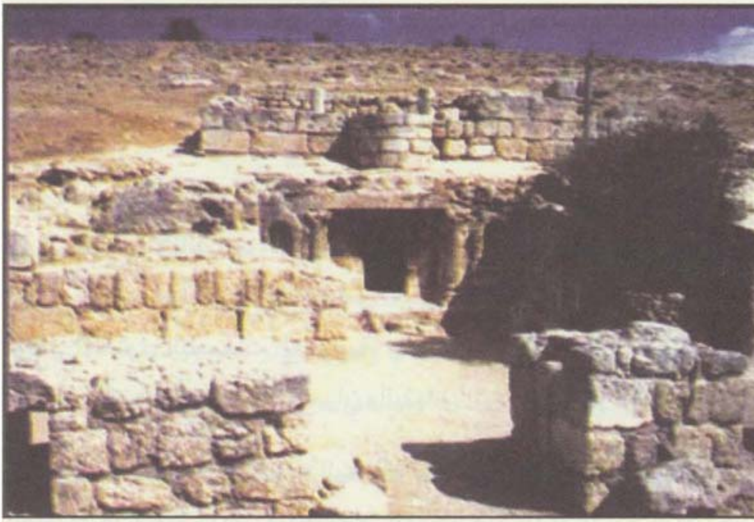
العديد من الأدلة التاريخية والأثرية إلى جانب إثبات المؤلف لتطابق علاقة حركة الشمس مع هذا الكهف، كما ورد فى الآية السابعة عشر من سورة الكهف، وأن فتحة باب الكهف موجهة تماما إلى جهة الجنوب الغربي[1]، شكل (٢٧).

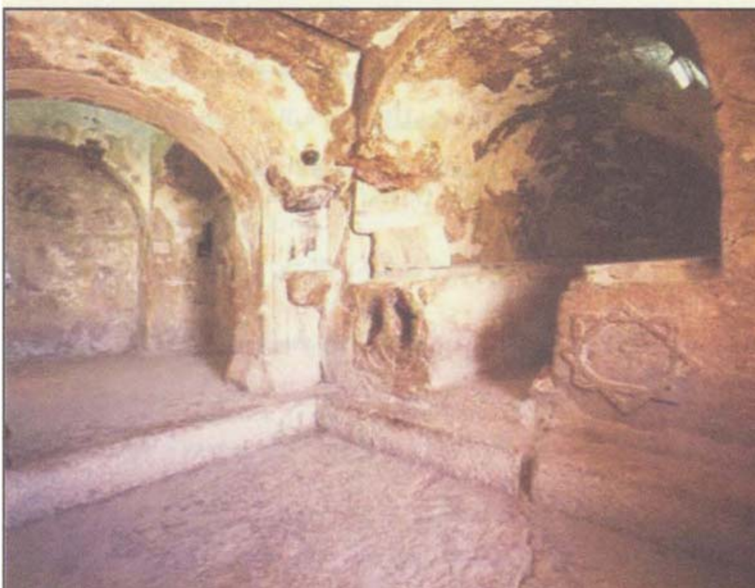
إن نماذج الآيات القرآنية التي أوردناها في هذا المبحث تؤكد أن القرآن الكريم قد أوضح أهمية أخذ العوامل البيئية في الاعتبار عند تصميم المباني أو على مستوى التجمعات العمرانية، وهو ما يعني أن أخذ البعد البيئي في الاعتبار يعتبر من ضوابط العمران والبنيان التي أكد عليها القرآن الكريم.

إن هذا الضابط الذى ألمح إليه القرآن الكريم يجب أن يؤخذ في اعتبار القائمين على تعمير المدن والمجتمعات العمرانية في الدول الإسلامية ، بحيث لا يكون الاعتماد فقط على الوسائل والتقنيات الحديثة كأجهزة التكييف وما شابه، لما لها من أضرار صحية إلى جانب أعبائها الاقتصادية الكبيرة التي ربما تتفق مع الظروف الحالية لبعض المجتمعات العربية، ولكنها من جانب آخر لا تتفق مع الظروف الاقتصادية السائدة في الكثير من المجتمعات العربية والإسلامية الأخرى.

---

(١) للمزيد من التفاصيل انظر: يحيى وزيرى (٢٠٠٤): دلائل الإعجاز العلمي في إشارات التصميم البيئي في القرآن الكريم، مرجع سابق.





شكل (٢٧): صور لكهف الأردن من الخارج والداخل، وهو الكهف التي ترجح العديد من الأدلة على أنه الكهف المذكور في القرآن الكريم.

المبحث الثالث

توظيف الإبداع الجمالي في المعمار

يظن كثير من المسلمين أن الإسلام دين جامد تنحصر تعاليمه فقط بين الأوامر والنواهي، أو «افعل» و«لا تفعل»، وتنعكس رؤيتهم الضيقة هذه على كل مناحي الحياة المختلفة، لذلك فإنهم يرون تنحية كل مظاهر الإبداع الفني والجمالي من حياة المجتمعات الإسلامية.

ولتصحيح هذا المفهوم، فإن هذا المبحث يهدف إلى توضيح أن الإسلام ينبه، من خلال العديد من التوجيهات القرآنية أو الأحاديث النبوية الصحيحة، إلى أن مفهوم «الجمال» أو«الزينة» لا ينفصل عن تحقيق جوانب النفع والوظيفة في خلق الله للكون، بتفاصيله وكائناته التي لاحصر لها.

كما يهدف هذا المبحث إلى توضيح كيف أن «الأمر» و«النهى» في الإسلام قد أسهم في الارتقاء بالجوانب الجمالية في الفنون والعمارة على حد سواء، من خلال إعطاء الأمثلة التطبيقية على ذلك والتي ميزت الفنون المعمارية الإسلامية عن غيرها من فنون الحضارات التي سبقتها أو تلتها.

وأخيرا، فإن هذا المبحث يوضح كيف أن الرؤية الجمالية عند الفنان والمعماري المسلم كانت نابعة من استخدام أصول وقواعد علمية يأتي على رأسها استخدام النسب الرياضية والهندسية في تصميم عناصر المبنى المختلفة، لضمان تحقيق الحد الأدنى من الجمال على مستوى المبنى ككل أو على مستوى أجزائه وتفاصيله وزخارفه.

أولا: مفهوم الجمال في الرؤية الإسلامية

تعرف القواميس الجمال بأنه الحسن والملاحة والبهاء[1]، أما الجمال في الفلسفة فهو صفة تلحظ في الأشياء وتبعث في النفس سرورا ورضا، أما

---

(١) علي علي آل موسى (١٤٢٧هجرية): الجمال في القرآن الكريم.. قراءة وصفية. مجلة القرآن نور- السنة الرابعة، العدد الخامس، تصدر عن مؤسسة القرآن نور، لبنان، ص١٩- ٦٢.

علم الجمال فهو باب من أبواب الفلسفة يبحث في شروط الجمال ومقاييسه ونظرياته[١].

لقد كان موقف الإسلام من الجمال واضحا وضوح الشمس، وهو ما يمكن أن ندلل عليه بواسطة العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، والتي يأتي في مقدمتها جملة وردت في أحد الأحاديث النبوية يستشهد بها المسلمون دائما عند الحديث عن الجمال أو حب التزين وهي: «إن الله جميل يحب الجمال»[٢]، فالحرص على طلب الجمال وتحقيقه محمود في الإسلام، بل هو سعي على درب الاتصال بطرف من صفات الله المعلنة في أسمائه.

وقد ورد لفظ «الجمال» بصورة مباشرة في العديد من الآيات القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾[٣]، أو عن طريق ذكر بعض الصفات والمعاني المخبوءة والملازمة لصفة الجمال، كالحسن مثلا كما في قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣﴾[٤].

وإذا كانت الزينة والتزين هي أحد أشكال بروز وإبراز الجمال، فلقد وردت العديد من الآيات القرآنية التي تتحدث عن مظاهر الزينة ومكامن الجمال في الكون والإنسان والحيوان والنبات، منها[٥]:

١- الجمال في الإنسان، في قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[٦].

---

(١) المعجم الوجيز (٢٠٠٠): طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم المصرية، مجمع اللغة العربية، مصر، ص١١٧.

(٢) رواه مسلم وابن ماجه والترمذي والإمام أحمد.

(٣) سورة النحل: الآية٦.

(٤) سورة التغابن: الآية٣.

(٥) للمزيد من التفاصيل انظر: علي علي آل موسى، مرجع سابق.

(٦) سورة غافر: من الآية٦٤.

٢- الجمال في الطبيعة والكون، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[٢].

٣- الجمال والبهجة في النباتات والمزروعات، مصداقا لقوله تعالى:

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[٣].

ولم يقف القرآن الكريم عند توضيح أن الجمال والزينة من مظاهر إبداع خلق الكون والإنسان، ولكن كان قاطعا وحاسما في توضيح أن الجمال والزينة لا تعد من المحرمات، بل إن وجودها وإخراجها للعباد مقرون بالطيبات من الرزق، وذلك تصحيحا للمفهوم الخاطئ الذى يربط دوماً الإيمان بالبعد عن كل مباهج الحياة التي أحلها الله، حيث يقول جل في علاه: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[٤].

إن الجمال في مفهوم العديد من فلاسفة الغرب هدف في حد ذاته، ولا يشترط أن يرتبط بمنفعة أو وظيفة معينة، فلقد عرفه «كانت» بأنه: «ما يروق لنا بغير أن يرتبط بمنفعة معينة»[٥]، وعرفه «شوبنهور» بأنه: «صفة للشيء

---

(١) سورة الكهف: الآية ٧.

(٢) سورة الحجر: الآية ١٦.

(٣) سورة الحج: الآية٥.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٣٢.

(٥) أميرة حلمى مطر: مقدمة في علم الجمال، دار النهضة العربية، القاهرة، ص٢٠.

الذى يبعث في نفوسنا السرور بصرف النظر عن مدى نفعه لنا..»[1]، لذلك يُلاحظ انعكاس هذه النظرة على آثار الفن التشكيلي الغربي (اللوحات والتماثيل) التي لا يقصد من ورائها الاستعمال النفعي، بل التمتع فقط[2]، ويصبح الهدف النهائي من إنتاج وإبداع العمل الفني مهما كانت صورته النهائية هو الفن نفسه أو «الفن للفن».

أما في المفهوم الإسلامي، فإن الجمال والزينة يرتبطان بالمنفعة المادية والجوانب الوظيفية،شكل (٢٨)، ويؤكد هذا المفهوم قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ ﴾[3]، فحين يتحدث القرآن الكريم عن الأنعام وعلة خلقها يشير إلى جانبين فيها[4]: أولهما: الجانب الوظيفي بما تجلبه للإنسان من دفء بجلودها وأكل للحومها، وحمل لأغراضه وأمتعته وركوبه وامتطائه لظهورها عند التنقل، وثانيهما: الجانب الجمإلي فهي مصدر بهجة يغدق عليه الأنس والارتياح، وزينة تطرز ثوب حياته بخيوط مخملية رائعة يسكن إليها.

وحين يتحدث القرآن الكريم عن الحدائق ذات الثمار الوارفة الظلال، فإنه يصفها بأنها «ذات بهجة»، تأكيدا على الربط بين وظيفة الحدائق

---

(١) غازي الخالدي (١٤١٩هجرية:. علم الجمال.. نظرية وتطبيق في الموسيقى والمسرح والفنون التشكيلية، وزارة الثقافة، دمشق، ص٢٤.

(٢) بركات محمد مراد (٢٠٠٥): الفنان المسلم والإبداع، مجلة المسلم المعاصر، تصدر عن جمعية المسلم المعاصر، القاهرة، ص٨١- ١١٢.

(٣) سورة النحل: من الآية ٥- ٨.

(٤) علي علي آل موسى: مرجع سابق.

النفعية حيث تخرج الثمار والمزروعات ليأكل منها الناس، كما توفر لهم الظلال حماية لهم من الشمس، شكل (٢٩)، وبين إدخال البهجة والسرور على النفوس بما تحويه من مناظر طبيعية جميلة وخلابة، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[1].

وإذا كان الله تعالى قد أحل أنواع الزينة وكل أنواع المتاع الذى تقدمه الحياة، فإن ذلك مشروط بمراعاة المبادئ الأخلاقية، لأن الجمال إنما هو للمتعة السامية وليس للابتذال أو العبث، لذلك فقد نعى القرآن الكريم على قوم عاد أنهم كانوا يقيمون المباني الرائعة الجميلة من أجل العبث، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[2]، وهو ماسبق أن أوضحناه في الفصل الأول من أن الآية الكريمة لم تستنكر اتخاذ عاد للمباني الرائعة الجمال، ولكن استنكرت الغاية، وهي هنا «العبث».

---

(١) سورة النمل: الآية ٦٠.

(٢) سورة الشعراء: الآية ١٢٨.



شكل (٢٨): علبة لحفظ المصحف الشريف ، توضح تلازم الوظيفة والجمال في رؤية الفن الإسلامي.



شكل (٢٩): الحدائق أحد عناصر الجمال وإدخال البهجة على النفوس كما ورد في القرآن الكريم.

ثانيا: إسهام الأمر والنهي في الارتقاء بالجوانب الجمالية والفنية

لقد كان ذكرُ الجمال على تنوعه في القرآن الكريم والتنبيه إلى النظر إليه، من أسباب الاهتمام بتجميل الحياة عند المسلمين، والظهور بمظهر الجمال في مختلف الأحوال والمناسبات العامة[1].

بل إن القرآن الكريم قد حث وأمر المسلمين على الأخذ بأسباب الجمال والزينة بطريقة مباشرة، حيث أمرهم بذلك في قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾[2]، فدعوة القرآن الكريم الناس إلى اتخاذ الزينة عند كل مسجد، أي إلى إقامة التلازم وعقد القران بين التزين وبين دعاء الله والمثول بين يديه، ولا يحسبن أحدٌ أن الزينة التي يطلبها الإسلام ويأمر بها مقصورة على الثياب الحسنة والطِّيب وحسن التجمل فقط، عند المثول بين يدى الله في الصلاة، ذلك أن الزينة إذا كانت اسما جامعا لكل شيء يتزين به، فإن مصادر طلبها ومواطن الإحساس بها مبثوثة في كل آيات الجمال التي خلقها الله وأبدعها وأودعها في سائر أنحاء الوجود[3].

لقد وجه القرآن الكريم أنظار المسلمين إلى إمكانية توظيف الجمال في الأعمال الفنية والمعمارية، عن طريق أمثلة ونماذج مختلفة، منها على سبيل المثال ما يلى[4]:

١- ما بناه الجن لسليمان:

فقد كان الجن مسخرا لسيدنا سليمان عليه السلام، يبنون له القصور

---

(١) للمزيد من التفاصيل انظر: محمد عبد الهادى أبو ريدة (١٩٩٢): قاموس القرآن الكريم.. مضمون القرآن الكريم، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ص١٤٦ ومابعدها.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٣١.

(٣) محمد عمارة (٢٠٠٥): الإسلام والفنون الجميلة، دار الشروق، القاهرة، ص ٢٣.

(٤) للمزيد من التفاصيل انظر: علي علي آل موسى، مرجع سابق.

والهياكل المرتفعة (محاريب)، ويصنعون صوراً مجسمة من نحاس وغيره (تماثيل)، وأواني طعام ضخمة كأنها أحواض المياه (جفان كالجواب)، وقدورا ثابتات على المواقد لعظمها (قدور راسيات)، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾[1].

ثم يعطينا القرآن الكريم مثالا تفصيليا لواحد من القصور الفريدة الرائعة في «الحضارة السليمانية»، وهو ما أطلقنا عليه «الصرح السليماني» في الفصل الأول من الكتاب، وهو يمثل إبداعا جماليا فوق تصور وقدرة البشر. نستشف ذلك من قوله تعالى: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[2].

لقد كان هذا الصرح صحناً من زجاج تحته ماء وفيه الحيتان، ليريها ملكا أعظم من ملكها. وحكى أبو عبيدة: أن الصرح كل بناء عالٍ مرتفع عن الأرض، وأن الممرد المحكوك الأملس، ومنه الأمرد[3].

فالآية الكريمة السابقة توضح أن سيدنا سليمان عليه السلام قد استخدم هذا الصرح المعماري، الذي يعكس قمة الجمال والإبداع الفني، كوسيلة وأداة لدعوة ملكة سبأ إلى الدخول في الإسلام والإيمان بالله، وقد استخدمت مادة الزجاج بصورة أساسية في بناء هذا الصرح، فلماذا كان اختيار هذه المادة بالذات؟.

يشرح أبو الحسن الندوي ذلك فيقول: «أمر سليمان البنائين من الإنس

---

(١) سورة سبأ: الآية ١٣.

(٢) سورة النمل: الآية ٤٤.

(٣) انظر تفسير الآية ٤٤ من سورة النمل في الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.

والجن فبنوا لها قصرا ممردا (عظيما) من قوارير (زجاج)، وأجروا تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبين الماء، وكان المؤكد أن الملكة تتوهمه ماء فتكشف عن ساقيها، وهنالك تتبين الخطأ وتدرك قصر نظرها وانخداعها بالمظاهر. كانت هي وقومها يسجدون للشمس لأنها أكبر مظهر للنور والحياة، التي هي من صفات الله تعالى، وهنا ينكشف الغطاء عن عينها فتعرف أنها كما أخطأت في معاملة الزجاج معاملة الماء فكشفت عن ساقيها، كذلك أخطأت في معاملة الخالق فسجدت للشمس وعبدتها، وكان ذلك أبلغ من مئة خطبة وألف دليل...، وانكشف الغطاء عن عينيها وعرفت جهلها في قياس المظهر على الظاهر وعبادة الشمس والسجود لها»[1].

٢- بيوت وسقف من فضة:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾[2].

إن المثال القرآني السابق يوضح ويؤكد على أن استخدام مادة الفضة كمادة بناء أو تشطيب (نهو) نهائية لبيوت من كفر بالرحمن، يمكن أن يكون سببا في فتنة الناس ومنهم المؤمنين أو على الأقل بعضهم، فيصبحون جميعا أمة واحدة على الكفر كما أخبرت الآية الكريمة.

إن اختيار معدن الفضة بالذات له سبب جمالي، حيث إنه أكثر المعادن

(١) حسان داود (٢٠٠٤): سليمان بتعليم بلقيس الاستدلال يعلمنا، مجلة منار الإسلام- عدد ٣٥٢، وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف، دولة الإمارات العربية المتحدة، ص١٨.

(٢) سورة الزخرف: الآيات ٣٣-٣٥.

قدرة على عكس الضوء سواء الضوء الطبيعي نهارا أو الإضاءة الصناعية ليلا، وهو ما يعطيه مظهرا جماليا رائعا لدرجة تصل لحد الافتتان بالشكل الجمالي للمساكن التي يمكن أن تبنى من الفضة.

ومن زاوية أخرى، فإن الآية الكريمة تحتوي على وجه من أوجه الإعجاز القرآني، ألا وهو الإشارة إلى إمكانية استخدام المعادن بصورة أساسية في عناصر المباني المختلفة، كالأسقف والحوائط والأبواب وغيرها، وهذا سبق للقرآن الكريم حيث إن البشرية وقت نزول القرآن كانت تستعمل في إنشاء المباني مادة الحجر أو الطوب أو الخشب، ولم تكن تعرف استعمال المواد المعدنية بصورة أساسية في إقامة المباني أو تشطيبها، فلو كان هذا القرآن من قول البشر، فكيف يمكن لهذا الإنسان أن يتخيل إمكانية استخدام هذه المعادن بصورة أساسية في المباني كما حدث في القرن العشرين، حيث نجد نماذج لمبانٍ تستخدم بعض المعادن في كسوة أسقفها وحوائطها بصورة أساسية (كمتحف جوجنهايم بأسبانيا على سبيل المثال)، شكل (٣٠)، ويتم اعتبار هذا الأسلوب المعماري من أحدث الأساليب التصميمية في عصرنا الحديث[١].

٣- مساكن سبأ:

من النماذج الجمالية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم مساكن حضارة سبأ، حيث يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾[١].

لقد سبق أن أوضحنا في هذا الفصل في المحور الأول، أن الآية الكريمة تلفت إلى وجود جنتين عن يمين وشمال مساكن بلدة سبأ، وهو ما يلفت نظر

(١) انظر بحثنا: سقف من فضة..لماذا الفضة؟، مجلة الإعجاز العلمي، عدد أكتوبر، ٢٠٠٦م. الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مكة المكرمة.

(٢) سورة سبأ: الآية ١٥.

المصممين إلى أهمية وجود الحدائق في التجمعات العمرانية كعنصر جمالي وبيئي في الوقت نفسه.

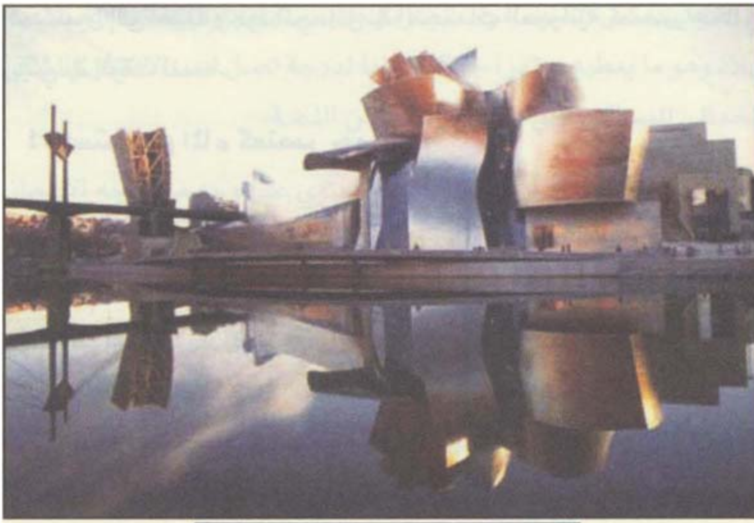
٤- استخدام الماء كعنصر جمالي :

يقول الله سبحانه وتعالى على لسان فرعون: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[١]، وفي معنى هذه الآية يقول الإمام القرطبي[٢]: «أي نادى فرعون رؤساء القبط وعظماءهم لما رأى الآيات الباهرة من موسى، وخاف أن يؤمنوا، فقال مفتخرا متبجحا: أليست بلاد مصر الواسعة الشاسعة ملكا لي؟ وهذه الخلجان والأنهار المتفرعة من نهر النيل تجري من تحت قصوري؟».

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٥١.

(٢) انظر تفسير الآية ٥١ من سورة الزخرف في الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.





شكل (٣٠): لقد كان للقرآن الكريم السبق في التنبيه على إمكانية استخدام بعض المعادن (الفضة مثلا)، كمادة نهو جميلة ومبهرة لأسقف المباني أو حوائطها، وهذا ما بدأنا نراه في بعض المباني الحديثة التى بدأت تستخدم بعض المعادن كالتيتانيوم الشبيه بلون الفضة.

ويمكن أن نفهم من قول فرعون في الآية الكريمة السابقة معنيين[١]: «الأول: أن قصور فرعون كانت مبنية على أماكن مرتفعة كالروابي مثلا، وكانت فروع نهر النيل في ذلك الوقت تجري تحت أو أسفل هذه الأماكن المرتفعة، وذلك لأن النيل في هذا الوقت إذا أقبل بفيضه في الصيف امتد فغمر الأرض بمائه فتظل تحت الغمر أمدا يمتد ربع العام، ولذلك فقد عمد المصريون إلى إقامة بيوتهم من فوق رواب تعلو الماء. أما المعنى الثاني: فهو أن الأنهار كانت تجري من تحت قصور فرعون بمعنى أنها تخترق بعضا أو أجزاء منها»، وفي الحالتين فإن الآية الكريمة تلفت النظر إلى أن الأنهار تجري من تحت الأماكن والقصور التي كان يبنيها فرعون لتؤكد أن هذا هو الأسلوب الأمثل لتصميم وتنسيق الماء في المواقع والجنات الأرضية، وذلك لأن هذا الأسلوب يحمي هذه المواقع من الفيضانات أو أن تغمر بالمياه، كما أنه من الناحية البصرية والجمالية يتيح للناظر إلى الماء أن يستمتع بمنظره الذي يُدْخل على النفس البشرية الراحة والسكون والصفاء.

إن النماذج القرآنية التي ذكرناها وغيرها مما لم نذكرها[٢]، ساهمت بشكل أساسي في حرص المسلمين على تحقيق الجوانب الجمالية والفنية فيما يصممونه وينفذونه من عمائر وزخارف، وهو مايمكن أن نلاحظه دون عناء عند زيارتنا للمساجد أو المساكن الإسلامية الأثرية الباقية في مختلف عواصم ومدن العالم الإسلامي كالقاهرة ودمشق وأصفهان وفاس وغرناطة وغيرها، وسوف نورد نماذج متعددة من جماليات فنون العمائر الإسلامية في المحور الثالث من هذا الفصل.

وإذا كان «للأمر» - سواء بطريق مباشر أو عن طريق لفت النظر والتنبيه كما أوضحنا -دور مهم في الارتقاء الجمالي بفنون العمران والبنيان، فلقد أسهم أيضا «النهي» بطريقة ملموسة في تحقيق الغاية نفسها أيضا.

(١) يحيى وزيري (١٩٩٢): التعمير في القرآن والسنة، القاهرة، ص٢٤.

(٢) للمزيد من التفاصيل انظر: علي علي آل موسى، مرجع سابق.

لقد كان للعديد من الأحاديث النبوية، التي نبهت إلى كراهية تصوير الكائنات الحية، أثر في ابتعاد الفنان المسلم عن استخدام الصور أو التماثيل المجسمة في العمائر الإسلامية بصفة عامة، ومن هذه الأحاديث ما يلي:

عن أبي زرعة قال: «دخلت مع أبي هريرة دار مروان بن الحكم فرأى فيها تصاوير وهي تبنى فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة أو فليخلقوا حبة أو فليخلقوا شعيرة»[١].

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يجمع الناس يوم القيامة في صعيد واحد، ثم يطلع عليهم رب العالمين، ثم يقال: ألا تتبع كل أمة ما كانوا يعبدون؟.. فيتمثل لصاحب الصليب صليبه، ولصاحب الصور صوره، ولصاحب النار ناره، فيتبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون..»[٢].

جاء رجل من أهل العراق كان يحترف التصوير، إلى عبد الله بن عباس، فقال له: «يا ابن عباس، إني رجل أصور هذه الصور وأصنع هذه الصور، فافتنى فيها؟، فقال له ابن عباس: «أنبئك بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، سمعت رسول الله يقول: كل مصور في النار، يجعل له بكل صورة صورها نفس تعذبه في جهنم»، ثم استطرد ابن عباس فأشار على الرجل أن يصور ما لاحياة فيه، فيمارس الفن الجميل في غير ماهو مظنة الوثنية، مماجاء فيه النهى والتحريم، فقال للرجل: «فإن كنت لا بد فاعلا، فاجعل الشجر وما لا نفس فيه»[٣].

هذه بعض نماذج من التوجيهات النبوية التي استنبط منها علماء

(١) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد.

(٢) رواه البخارى ومسلم والنسائي والإمام أحمد.

(٣) رواه الامام أحمد.

الإسلام كراهية تصوير كل ما له روح، كما وجهت نظر الفنان والمصمم المسلم إلى إمكانية الاستعاضة عن ذلك بتصوير الجمادات وكل ما لا نفس فيه، كما أشار الصحابى الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنه.

من هنا نشأت الزخارف الإسلامية المتميزة والمعروفة باسم «الأرابيسك»، وكانت على نوعين أساسيين[1]: الأول يعتمد على الخطوط المستقيمة والزوايا ويسمى أحيانا «بالتسطير»، وهو هندسى، والثاني يركز على الخطوط الملتوية والدوائر والتجريد النباتي، وقد يطلق عليه «التوريق» أو «التزهير»، وقد يحدث دمج بين النوعين السابقين، شكل (٣١).

وهذا يعني أن النهي عن تصوير ما لا روح فيه قد أدى إلى ابتكار فن الأرابيسك أو العربسة أو الرقش العربى، وكلها ألفاظ للدلالة على جميع أنواع الزخارف الإسلامية الهندسية وغير الهندسية الملونة، والبسيطة الدائرية والمستقيمة، النباتية والكتابية.

كما أدى أيضا هذا النهي إلى اهتمام الفنان والمصمم المسلم باستخدام الخط العربي، هذا بالطبع يسبقه دافع آخر ألا وهو الاحتفاء باللغة العربية، لغة القرآن الكريم، فاستخدم الخط العربي بأنواعه المختلفة التي تفنن الفنان المسلم في ابتكارها[2]، لتزيين المساجد والمساكن بالآيات القرآنية وبأبيات الشعر وبالمأثورات والحكم، شكل (٣١).

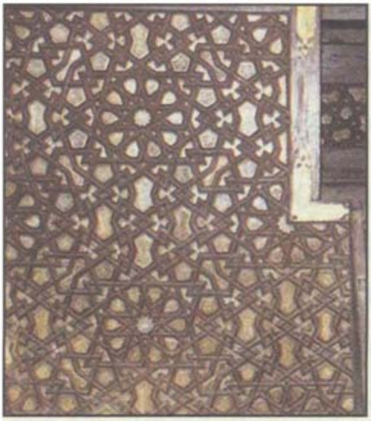
---

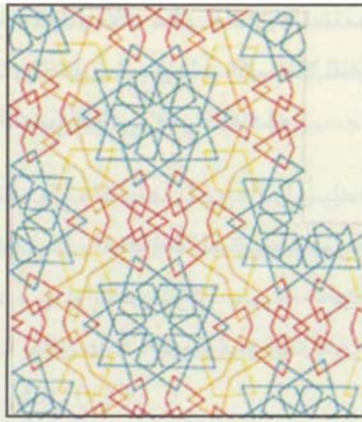
(١) انظر كتابنا: موسوعة عناصر العمارة الإسلامية (الكتاب الرابع) (٢٠٠٠): مكتبة مدبولي، القاهرة، ص٥٣.

(٢) للتعرف على أنواع الخطوط العربية انظر ما يلي:

- عفيف البهنسي (١٩٨٤): الخطُ العربي.. أصوله، نهضته، انتشاره، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق.

- إبراهيم جمعة (١٩٦٩): دراسة في تطور الكتابات الكوفية، دار الفكر العربي، القاهرة.





نموذج لزخرفة هندسية أساسها الطبق النجمي ذو العشرة أفرع، من

ابتكارات العمارة الإسلامية



نموذج لزخارف نباتية إسلامية على القاشاني

شكل (٣٠): كان للنهي عن تصوير الكائنات الحية الأثر في ظهور فن زخارف الأرابيسك.

ونعطي هنا أيضا مثالا آخر يوضح إسهام النهي في ابتكار نوع من الخزف الإسلامي، عرف باسم الخزف ذي البريق المعدني، شكل (٣٢)، فعن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافيهما فإنها لهم (أي الكفار) في الدنيا ولكم في الآخرة»[١]، والحديث الشريف هنا ينهى صراحة عن استعمال آنية الذهب والفضة بمختلف أنواعها وأشكالها.

لقد حرص الفنان المسلم على أن يبتكر نوعاً من الخزف الفاخر يصلح لأن يكون بديلا لأواني الذهب والفضة، بحيث يحقق الرضا والمسرة للقادرين على اقتنائه[٢]، وكان أول ظهور هذا النوع من الخزف في العصر العباسي الذي ينسب إليه أقدم ما وصلنا منه...، ومن أمثلة استعماله في العمائر الإسلامية حائط القبلة في المسجد الجامع بمدينة القيروان، حيث توجد بلاطات مربعة ذات بريق معدني وضعت في ترتيب هندسي على وجه المحراب داخل التجويف[٣].

ومن المعروف أن صناعة الخزف ذي البريق المعدني انتشرت في العالم الإسلامي كله منذ القرن الثالث للهجرة، وأنها استمرت في الأندلس حتى بعد سقوط الدولة الإسلامية في نهاية القرن الخامس عشر[٤].

---

(١) حديث متفق عليه.

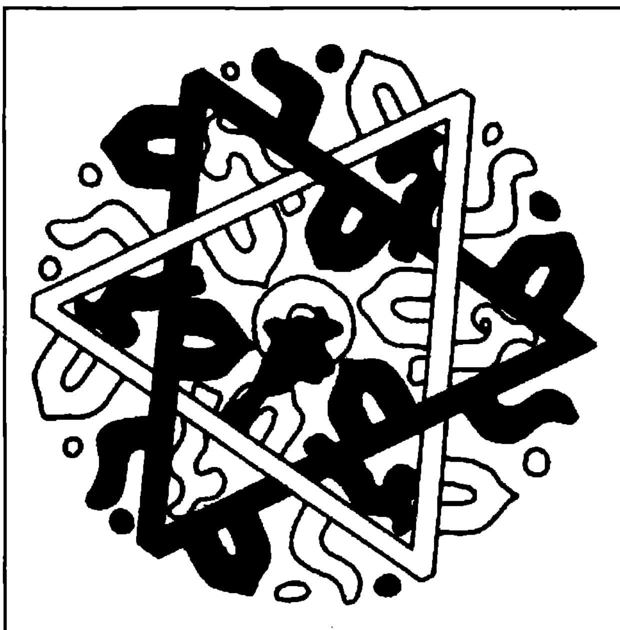
(٢) أبو صالح الألفي (بدون تاريخ): الفن الإسلامي.. أصوله، فلسفته، مدارسه، (ط٣)، دار المعارف، القاهرة، ص٢٦٦.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٦٧.

(٤) للمزيد من التفاصيل انظر: سعاد ماهر (بدون تاريخ): الفنون الإسلامية. مركز الشارقة للإبداع الفكري، دائرة الثقافة والإعلام بحكومة الشارقة، الشارقة.

ثالثا: استكشاف أسلوب تحقيق الإبداع الجمالي في العمائر الإسلامية

اهتم العديد من الباحثين في مجال العمارة والفنون الإسلامية بتحديد المبادئ والأسس الفنية التي أسهمت في إعطاء التميز الجمالي للفنون والعمارة الإسلامية، سواء أكان ذلك على مستوى العمائر أم الزخارف، ومن أشهر الدراسات في هذا المقام كتاب «جمالية الفن العربي» للدكتور عفيف البهنسي[(١)]، وتعتبر من الدراسات القيمة في هذا المجال[(٢)].



شكل (٣١): نموذج من فن الخط العربى الزخرفي الهندسي.

(١) عفيف البهنسى (١٩٧٩). جمالية الفن العربي، سلسلة عالم المعرفة- العدد (١٤)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

(٢) انظر أيضا على سبيل المثال: الجماليات والجماليات العربية (١٩٨٦)، مجلة الوحدة- العدد (٢٤)، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، المملكة المغربية.





شكل (٣٢): نماذج من الخزف ذي البريق المعدني، من ابتكارات الفن الإسلامي

من مقتنيات متحف الخزف الإسلامي بالقاهرة.

ونحن في هذا المحور لسنا بصدد استعراض المعايير الجمالية الظاهرية التي اتصفت بها فنون العمارة الإسلامية، كأشكال الزخارف والمقرنصات أو أنواع القباب والمآذن والأعمدة وغيرها من عناصر العمارة الإسلامية، ولكننا نحاول أن نستكشف بعمق أكثر كيف تمكن الفنان والمصمم المسلم من ضمان الحد الأدنى من القيم البصرية الجمالية على مستوى المبنى ككل أو على مستوى تفاصيله وزخارفه.

فلقد أوضحت بعض الدراسات والأبحاث الحديثة أن المصمم المسلم استعان بنسب هندسية ثابتة ومعروفة، وقام بتطبيقها على مستوى المساقط الأفقية والواجهات والقطاعات وعناصر العمائر الإسلامية، من أجل تحقيق الإبداع الجمالي وضمان الحد الأدنى من توافر القيم الجمالية البصرية في المعمار، شكل (٣٣).

وفيما يلى بعض الأمثلة والنماذج التى توضح ما ذكرناه:

١ - استخدام النسب الرياضية في المساقط الأفقية :

في دراسة بحثية قام بها الدكتور عبد الرحمن سلطان على خمسة منازل قاهرية (من القرنين السابع والثامن عشر)[١]، وجد أنه قد تم استخدام بعض النسب الرياضية المعروفة في تصميم الفراغات المعيشية الرئيسية، وأن استخدام هذه النسب كانت من أهم أدوات التصميم المعماري في تلك الفترة، وأنها كانت من الأسباب الخفية وراء جمال العمارة الإسلامية.

فقد استخدمت النسبة الذهبية (فاي) وتمثل رياضيا بالنسبة (١,٦١٨:١)، في نسب بعض فراغات المعيشة الرئيسية كالمقعد والتختبوش في بعض البيوت القاهرية كمنزل علي كتخدا ، شكل (٣٤-أ)، وبيت جمال الدين الذهبي، وكذلك في الأقسام الرئيسية من المسقط الأفقي.

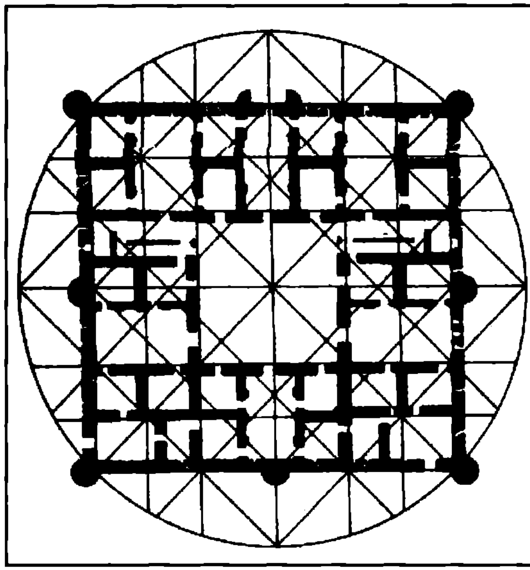
أما النسب الهندسية (باي)، وهي تمثل بيانيا النسبة بين محيط الدائرة إلى قطرها (٣,١٤)، فقد استخدمت في تصميم القاعة والمندرة في بيوت السناري وعلي كتخدا والذهبي والست وسيلة والسحيمي.

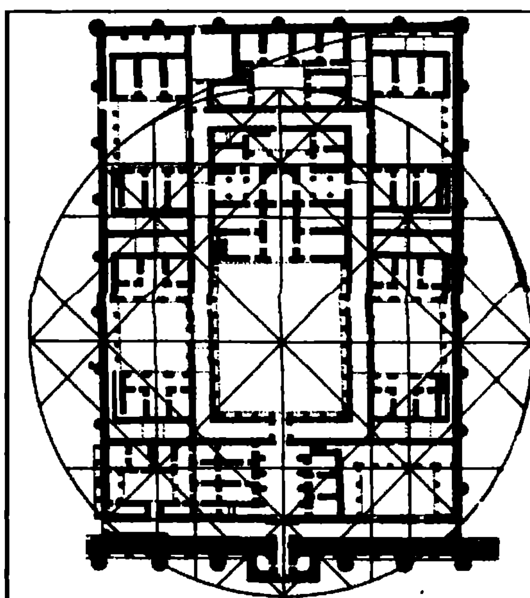
كما وجدت الدراسة أن نسب بعض الفراغات الثانوية كانت تبعا لنسب المثلث (٣:٤:٥)، كما في بيت السناري والست وسيلة وعلي كتخدا، شكل (٣٤- ب).

وهو ما يثبت أن جمال النسب في مساقط هذه البيوت القاهرية لم يأتِ من فراغ، بل كان يتأسس على أصول علمية وهندسية واضحة وعميقة.

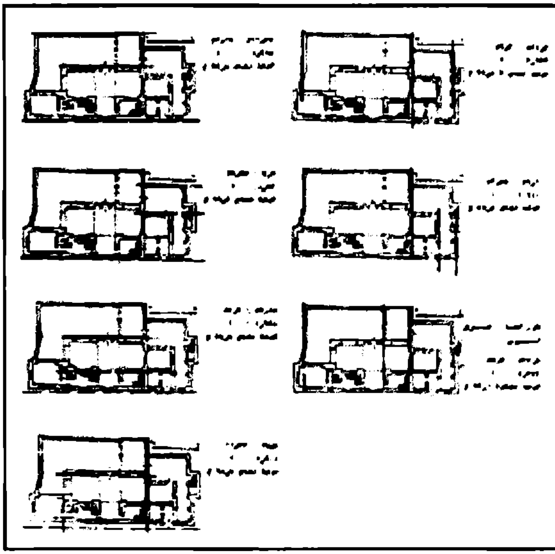
---

(١) عبد الرحمن سلطان (١٩٨٨): النسب الرياضية في العمارة الإسلامية، مجلة عالم البناء- عدد (٩٦)، جمعية إحياء التراث التخطيطي والمعماري، القاهرة، ص ٢٢- ٢٨.

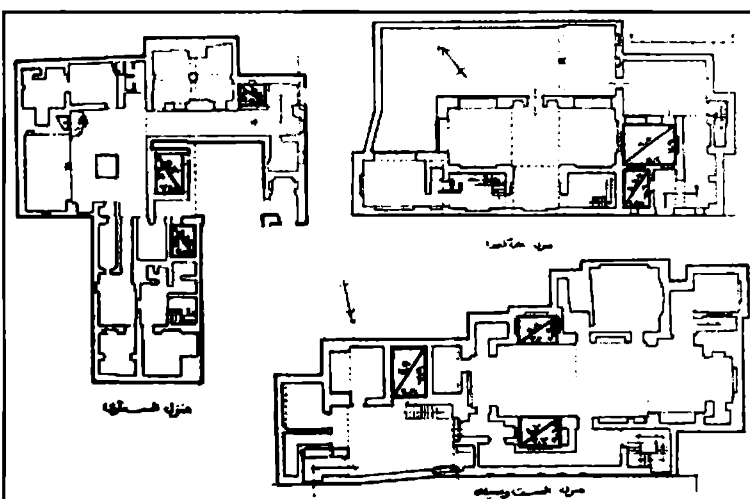




شكل (٢٣): نماذج من مساقط أفقية لعمائر إسلامية مصممة وفقاً لنسب هندسية محددة.



شكل (٣٤-أ): استخدام النسبة الذهبية في المسقط الأفقي لبيت علي كتخدا بالقاهرة.



شكل (٣٤- ب): تصميم نسب بعض الفراغات الثانوية تبعا لنسب المثلث (٣:٤:٥)، كما في بيت السناري والست وسيلة وعلي كتخدا بالقاهرة.

٢- استخدام النسب في تصميم العناصر المعمارية:

فلقد أورد «ولفرد جوزيف دللى» في كتابه القيم «العمارة العربية بمصر» العديد من الأمثلة التي توضح أسلوب استخدام النسب الهندسية في عناصر العمائر الإسلامية المختلفة[1]، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

أ- كان تصميم العقود وفق نسب محددة أساسها عرض فتحة العقد (ف)، شكل (٣٥)، كما أن النسبة بين سمك العقد وبين عرضه تقل عادة كلما كبرت الفتحة، فتكون من ١/٤ إلى ١/٥ في نوافذ الأبواب والشبابيك المعتادة، ومن ١/٧ إلى ١/١٠ للبواكي المتوسطة الحجم، وتتراوح بين ١/١٥ إلى ١/١٧ في العقود كبيرة الفتحات (كعقود إيوانات المساجد).

ب- بالنسبة إلى قوالب الكرانيش البارزة، وجد أن عرض إطار حجر المدخل الذي يتراوح ارتفاعه ما بين عشرة أمتار وخمسة عشر مترا يجب أن يكون ٢٠ سنتيمترا، أما عرض الطراز الذي يلتف حول عنق قبة تعلو عن سطح الأرض بنحو خمسة وعشرين مترا فيجب أن يكون نحوا من ٤٠ سنتيمترا.

ج- أما بالنسبة إلى الشرفات (العرائس)، فوجد أن عرض الشرفة المسننة عند قمتها يختلف من ١/٤ إلى ١/٥ ارتفاعها عن ظهر «الطبان»، وكذلك ارتفاع جزء القاعدة الذي يصل الشرف بعضها ببعض، فإنه يبلغ نحو ١/٦ من ارتفاع الشرفة الكلي عن «الطبان»، ويختلف ارتفاع الشرف المسننة من ٢/١٣ إلى ١/١٠، وفي العادة يكون عدد أسنان أو درجات الشرف ستة.

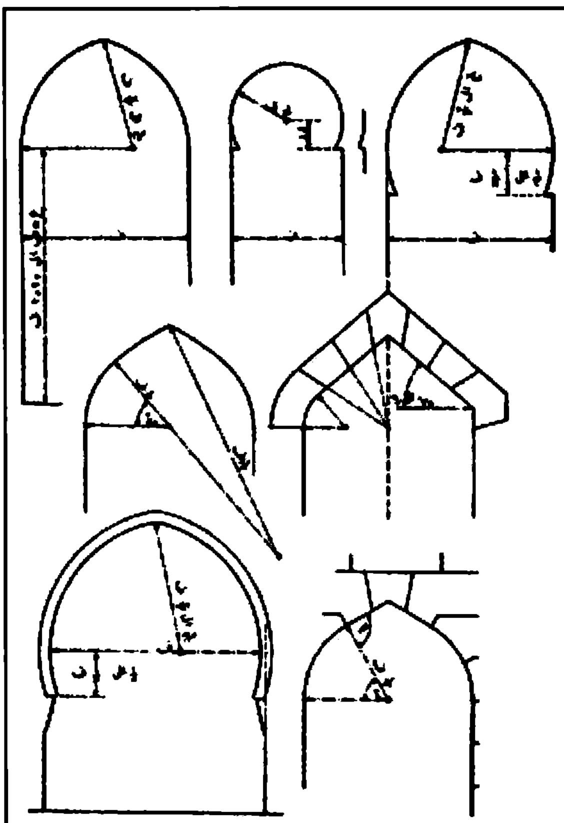
أما في الشرف المورقة (ذات الشكل النباتي) فإن ارتفاعها يختلف من ١/١٥ إلى ١٧-١ من ارتفاع البناء عن سطح الأرض، بحيث يصغر هذا

---

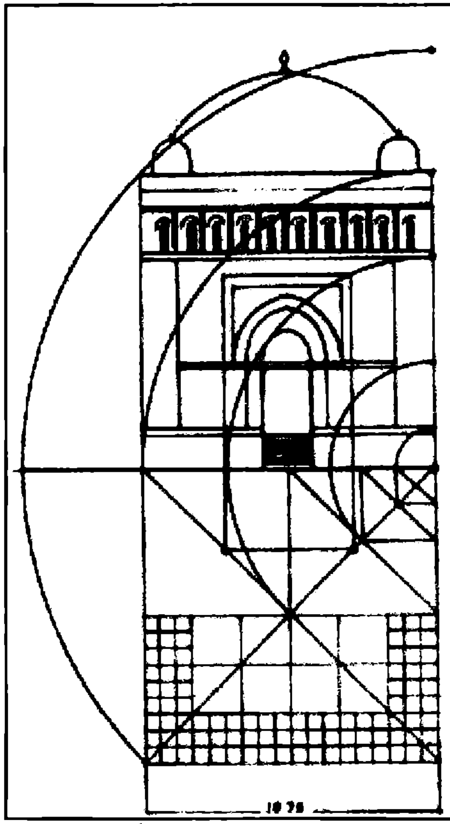
(١) ولفرد جوزيف دللى (ترجمة: محمود أحمد) (٢٠٠٦): العمارة العربية بمصر في شرح المميزات البنائية الرئيسية للطراز العربي، مكتبة الأسرة (سلسلة الفنون)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

الكسر كلما زاد ارتفاع البناء.

لقد أورد الكتاب أمثلة أخرى لأسلوب استخدام النسب الهندسية في تصميم القباب والأعمدة والمآذن وغيرها من العناصر المعمارية الأخرى، شكل (٣٦)، وكل هذه الأمثلة تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن أسلوب تصميم عناصر العمائر الإسلامية كان وفق نسب جمالية محددة، وكانت تستخدم باستمرار وبقواعد هندسية وعلمية ثابتة.



شكل (٣٥): نماذج لعقود إسلامية مختلفة مصممة تبعا للنسب الهندسية.

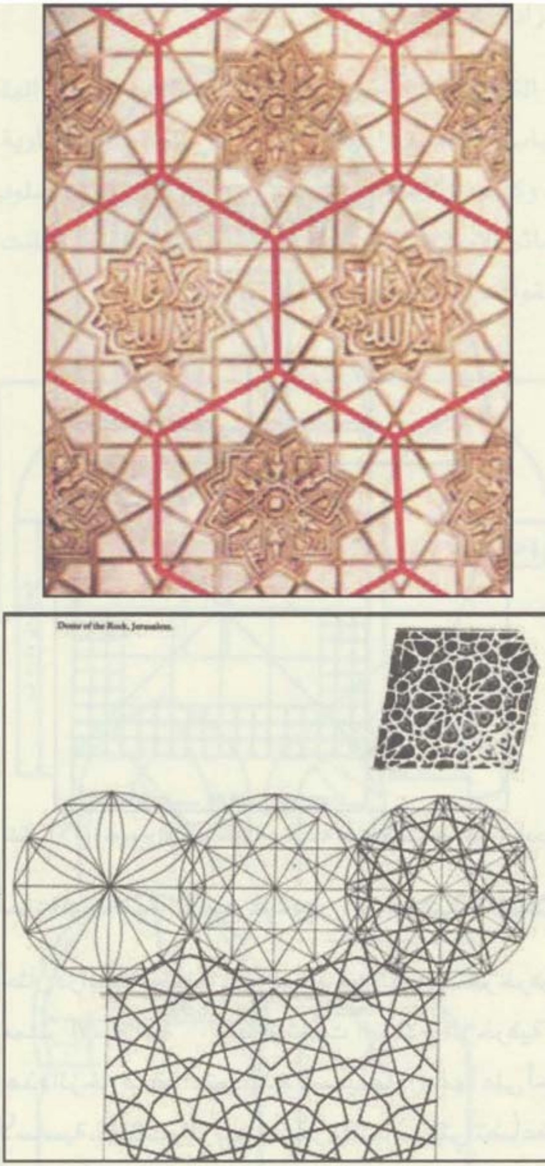


شكل (٣٦): نموذج لواجهة مئذنة مصممة طبقاً لنسب هندسية محددة.

٣- الأسس الهندسية لرسم عناصر الزخرفية الإسلامية :

أنجز باحثان دراسات تحليلية على العديد من الوحدات الزخرفية الموجودة في بعض العمائر الإسلامية[1]، وقد أوضحت النماذج الزخرفية الواردة في الدراسة أن هذه الزخارف قد اعتمدت في تصميمها ورسمها على أحد الأشكال الهندسية الأساسية، كالمثلث والمربع والمسدس والمثمن، والتي تتضاعف وتتشابك لكي يستخرج منها أشكال زخرفية لا حصر لها، شكل (٣٧).

(1) Issam El-Said and Ayes Parman (1977). Geometric Concepts in Islamic Art. World of Islam Festival Publishing Company Ltd, London.



شكل (٣٧): نموذجان لزخرفة إسلامية يوضحان كيفية استخدام

الشكل المسدس لرسمها وتكرارها.

٤- استخدام المقياس (الموديول) في الخط:

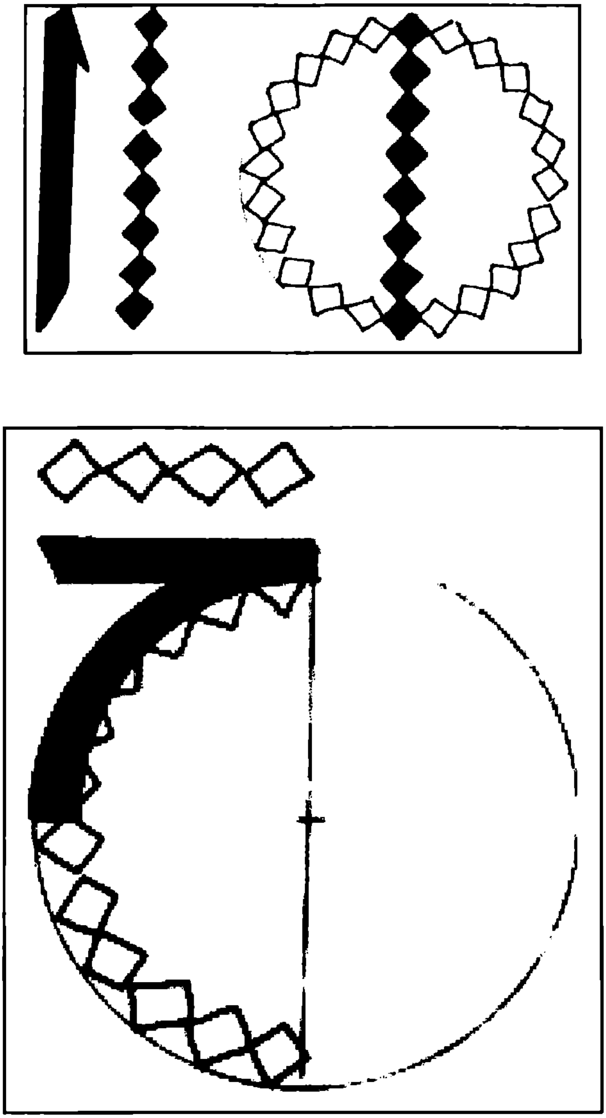
يعتبر الوزير العباسى «ابن مقلة» أول من وضع طريقة هندسية أو مقياساً لنسب حروف الكتابة العربية[١]، وحرف الألف هو الحرف الذي اعتبر مقياسا للتناسب لباقي الحروف الجميلة، فارتفاع الألف يختلف من ثلاث نقط إلى اثنتي عشرة نقطة وعرضها يبقى بعرض النقطة في جميع الحالات، كما أن اختيار ارتفاع الألف في نص من النصوص يقيد الخطاط في تحديد مقاييس الألف في النص كله[٢].

ويستعمل طول الألف أيضا كقطر (رأسي) لدائرة وهمية، نستطيع فيها أن نكتب جميع الأحرف[٣]، شكل (٣٨)، وهكذا نستطيع أن نقول إن العرب عرفوا المقياس (الموديول)، كوسيلة لتحديد العلاقة العضوية بين أجزاء الشكل منذ زمن قديم، وطبقوه في مجال الخط العربي لكي يكون معياراً للجمال.

(1) Zayn al-Din, N. (1968). Musawar al-Khaṭt al-Arabi (Arabic Calligraphy), Bagjdad,pp.96.

(٢) عفيف البهنسي: جمالية الفن العربي، مرجع سابق، ص١٢٧.

(3) Issam El-Said and Ayes Parman, pp.130,131.



شكل (٣٨): استخدام دائرة كأساس لوضع نسب ثابتة (موديول) لكتابة حروف اللغة العربية.

الفصل الثالث

تأثير المنهج الإسلامي
على تصميم المباني وتخطيط المدن

أوضحنا فى الفصلين الأول والثاني بعض أهم أسس ومميزات العمران والبنيان من منظور الإسلام، وقد حاولنا باستمرار أن نعتمد بصورة أساسية على القرآن الكريم لاستنباط هذه الأسس والميزات، مع تأكيد ذلك ببعض الأحاديث النبوية الشريفة كلما أمكن.

وفي هذا الفصل من الدراسة نحاول أن نوضح تأثير المنهج الإسلامي، متمثلاً في القرآن الكريم والسنة النبوية وآراء الفقهاء، على تصميم المباني وتخطيط المدن لإعطاء بعض المحددات التصميمية التي يمكن اتباعها في واقع التنفيذ العملي.

لقد وقع اختيارنا على المسجد والمسكن كنماذج رئيسية تنتشر في المجتمعات الإسلامية؛ فالأول هو بيت الله الذي يمثل أقدس وأطهر الأماكن عند المسلمين، والثاني يمثل المأوى الذي لا يمكن الاستغناء عنه، ليس فقط فى المجتمع الإسلامي، ولكن أيضا في أي مجتمع إنساني.

ولأن هذا الفصل يمثل المستوى التطبيقي من الدراسة، كما يبسط بعض الثوابت التصميمية التي لا تختلف من مجتمع إسلامي إلى آخر، كما أنها لا تتغير أيضا عبر الزمان، فلقد تم تقسيمه إلى ثلاثة مباحث رئيسية:

١- المبحث الأول: ضوابط عمارة المساجد.

٢- المبحث الثاني: ضوابط عمارة المساكن.

٣- المبحث الثالث: محددات تخطيط المدينة المعاصرة.

المبحث الأول

ضوابط عمارة المساجد

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝﴾[١]، المساجد هي بيوت الله في الأرض، والمسجد، في صورته البسيطة، ما هو إلا مساحة من الأرض صغيرة أو كبيرة، تنظف وتسوَّى وتطهر ثم يُعيَّن فيها اتجاه القبلة وتخصص للصلاة، وقد تسُوَّر هذه المساحات أو لا تسور، وقد تفرش بالحصى أو الحصر النظيفة أو البُسُط الغالية، وقد تقام فوقها مبان ضخمة ذات جدران وسقوف وقباب ومآذن، وقد لا يقام من ذلك شيء فلا يغير ذلك من الأمر شيئا، ويظل المسجد البسيط العادي مكانا مقدسا واضح الشخصية لا يقل في هيبته أو مكانته عن أضخم المساجد[٢].

لقد رأينا أنه من الأهمية بعد إعطاء فكرة عامة عن أهم ضوابط العمران والبنيان من منظور قرآني، أن نخصص هذا المبحث لإعطاء فكرة تفصيلية عن أهم ضوابط عمارة المساجد من وجهة نظر شرعية، أساسها القرآن والسنة إلى جانب الاستعانة بتوجيهات علماء المسلمين الأوائل والمعاصرين كلما أمكن ذلك.

وهذه الضوابط تعتبر بمثابة المعايير التصميمية التي يجب أن يلتزم بها المصممون أو الذين يقيمون المساجد في أي بقعة من بقاع الأرض؛ لأنها تعتبر ثوابت تصميمية لاتختلف من مكان لآخر، ولقد فصلنا تلك الضوابط والمعايير فيما يلي[٣]:

---

(١) سورة النور: آية ٣٦.

(٢) حسين مؤنس (١٩٨١): المساجد، سلسلة عالم المعرفة - عدد (٣٧)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص٥٥.

(٣) انظر أيضا كلا من:

- يحيى وزيري (التعمير في القرآن والسنة): مرجع سابق، ص ١٠٢ وما بعدها.
- يحيى وزيري (١٩٩٩): تأثير المنهج الاسلامى على عمارة المساجد، كتاب الندوة العالمية للمساجد، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض، ص ٩- ١٨.

أولا: أسس اختيار موضع المسجد

المسجد هو المكان الذي نسجد فيه، فكل بقعة في الأرض بالنسبة إلى المسلمين مسجد، وهذا مما خص الله به رسوله عليه الصلاة والسلام الذي قال: «وجعلت لنا الأرض مسجدا، وجعلت تربتها لنا طهورا»[1]، ونحن نتيمم من تراب الأرض ونصلي على الأرض.

أما المسجد في الشرع فهو المكان المخصص للصلاة، فإذا تم تخصيص مكان لمسجد ما فيجب ألا يزاول فيه أي نشاط إلا الصلاة وعبادة الله ومنع غير ذلك من حركات الحياة الدنيوية. وبالنظر إلى المسجد الحرام نجد أنه أول بيت لله باختيار الله مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[2]، فالله سبحانه وتعالى أمر الملائكة أن تقيم البيت للناس قبل أن يخلق الناس ليصير مثابة لهم من أول آدم عليه السلام، وعندما جاء سيدنا إبراهيم عليه السلام أرشده لمكان البيت فرفع مع سيدنا إسماعيل عليه السلام قواعد البيت.

أما بالنسبة إلى اختيار باقي المساجد في الأرض، فقد تركه الله للبشر واضعا لهم بعض القيود على هذا الاختيار، منها أن يراعى طهارة المكان المعنوية والحسية، فيجب ألا تبنى المساجد على القبور أو توضع فيها قبور، حيث ورد في بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم النهي الصريح عن فعل ذلك، كما يجب ألا تبنى على أرض مغتصبة أو بغير إذن أصحابها فالله طيب لا يقبل إلا طيبا.

ولنا في فعل رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام الأسوة الحسنة، فحينما بركت ناقته عند موضع مسجده بالمدينة المنورة، وكان حينئذ مربدا للتمر لغلامين يتيمين من الأنصار في حجر أسعد بن زرارة ثامنهما رسول الله

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم، انظر كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٩٦.

عليه الصلاة والسلام فيه، فقالا: بل نهبه لك يارسول الله فأبى حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير[1].

ثانيا: تأثير التوجه للقبلة على شكل المساجد

القبلة هي صدر المسجد وجداره المتجه نحو الكعبة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[2]، فالكعبة المكرمة هي قبلة من يصلي داخل المسجد الحرام، واستقبال عين الكعبة -لا جهتها- شرط من شروط صحة الصلاة داخل المسجد الحرام لمن يراها[3]، ومن هنا نجد أن الشكل الدائري أو المثمن بحيث تكون الكعبة المكرمة في مركز هذا الشكل، هو أنسب الأشكال الهندسية للمسقط الأفقي للمسجد الحرام، حيث يتيح للمصلين استقبال عين الكعبة بسهولة ويسر، كما أن الشكل الدائري أو المثمن يتناسب مع حركة الطائفين في دوائر متتالية حول الكعبة. فالشكل الدائري أو المثمن ينبع من مضمون الوظيفة الرئيسية للمسجد الحرام سواء كان ذلك في الصلاة أو الطواف، وهو شكل يفضل أن يتميز به شكل المسقط الأفقي للمسجد الحرام دون سائر مساجد الأرض الأخرى.

وقد قام الدكتور عبد الباقي إبراهيم - رحمه الله - بوضع تصور تصميمي للمسجد الحرام يتبنى الشكل الدائري، شكل (٣٩)، وعلى ثلاثة مستويات بحيث يتيسر للمصلين داخل المسجد من رؤية الكعبة المشرفة والتوجه إليها في صلاتهم بدقة ويسر[4].

---

(١) محمد بن عبد الله الزركشي (١٩٩٩): إعلام الساجد بأحكام المساجد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة، ص٢٢٣.

(٢) سورة البقرة: من الآية ١٤٤.

(٣) انظر على سبيل المثال: كتاب الفقه على المذاهب الأربعة (١٩٨٦)، قسم العبادات- مبحث استقبال القبلة، رسالة الإمام - عدد (١١)، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ص٩٧.

(٤) انظر: عبد الباقي إبراهيم، مرجع سابق، ص ٣٧، ٣٨.

أما بالنسبة إلى باقي مساجد الأرض – حتى ما كان منها داخل مكة نفسها- فإن اتجاه صفوف المصلين فيها تكون موازية لحائط القبلة، والذي يتعامد بدوره على اتجاه مكة المكرمة حيث المسجد الحرام، لذلك فإن المسقط الأفقي مستطيل الشكل بحيث يكون الضلع الأكبر لهذا المستطيل يمثل حائط القبلة، هو أنسب أسلوب وشكل هندسي لمسقط هذه المساجد في أي بقعة من بقاع الأرض، شكل (٤٠)، وخاصة أن الشكل المستطيل يتيح استطالة الصفوف الأولى للمصلين والتي لها أفضلية عن الصفوف الموجودة في مؤخرة المسجد[١].

ثالثا: أسلوب تصميم حائط القبلة

يمكن أن نستنبط من فعل رسول الله – عليه الصلاة والسلام – عند بنائه مسجده بالمدينة المنورة أسلوب تصميم حائط القبلة في المسجد، حيث أوضحت بعض الروايات أن حائط القبلة قبل تحويلها كان من جذوع النخل وباقي حوائط المسجد من الطوب اللَّبِن، أما بعد تحويل القبلة جهة مكة المكرمة فقد أصبح حائط القبلة من الحجر المنضود دون سائر حوائط المسجد المبنية بالطوب اللبن[٢].

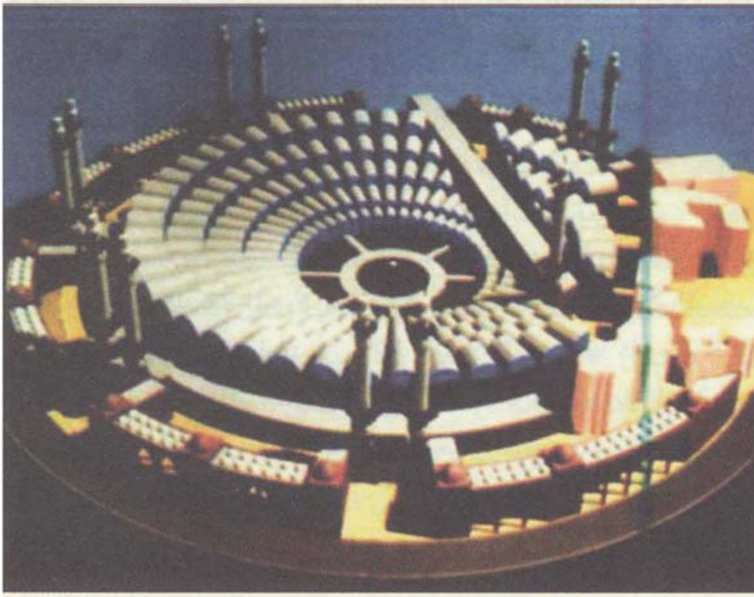
مما سبق يمكننا استلهام التالي: أن الأساس التصميمي المعماري لمعرفة اتجاه القبلة داخل المساجد يكون بتمييز حائط القبلة بمادة معمارية مخالفة لباقي حوائط المسجد، كالخشب أو الحجر أو الرخام وما شابه، حسب الخامات المتوفرة والإمكانات المادية المتاحة، شكل (٤١).

أما بالنسبة إلى استعمال المحاريب المجوفة في حائط القبلة، شكل (٤٢)، فإن أول استعمال للمحراب المجوف بالمسجد النبوي كان عام ٩٢ هجرية

(١) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:«لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا"، انظر موطأ الإمام مالك، كتاب النداء للصلاة.

(٢) انظر: عبد المجيد وافي (١٩٧٤): القبلة والمحراب، مجلة منبر الإسلام- عدد (٢)، القاهرة،ص٢١٦.

في عمارة عمر بن عبد العزيز، وقد كره بعض الفقهاء استعمال المحراب المجوف بالمساجد حيث يرون أن فيه تشبهًا بكنائس أهل الكتاب، وذلك لرواية البيهقي من حديث ابن عمر قال: «إنما كانت للكنائس فلا تشبهوا بأهل الكتاب»[1].



شكل (٣٩): الشكل الدائري هو أنسب شكل تصميمي للمسجد الحرام، دون باقي مساجد الأرض (من تصميم الدكتور عبد الباقي إبراهيم).

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: رجاله موثقون.



لقطة جوية للمسجد الأموي بدمشق

شكل (٤٠): الشكل المستطيل لقاعة الصلاة هو أنسب شكل يمكن استخدامه بالمساجد.



شكل (٤١): تمييز حائط القبلة بمادة معمارية مخالفة للحوائط، مسجد كلية الطب البيطري

بجامعة القاهرة (من تصميم المؤلف).



شكل (٤٢): محراب خشبي نادر بمسجد السيدة رقية بالقاهرة.

وقال الشيخ ناصر الدين الألباني[١]: (جزم السيوطي في كتابه «إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب»، أن المحراب في المسجد بدعة، وتبعه الشيخ علي القاري في «مرقاة المفاتيح»)، كما أورد الزركشى في كتابه «إعلام الساجد» كلاما عن كراهية بعض السلف اتخاذ المحاريب في المساجد[٢].

ومن وجهة نظر أخرى، يرى البعض أنه لا بأس باتخاذ المحراب بشرط عدم التشبه بمحاريب الكنائس والمعابد، كما يجب البعد عن زخرفته بما يشغل الإمام والمصلين من خلفه، كما يفضل أن يصمم المحراب بحيث يتسع لمصلى الإمام وبذلك يتم توفير صف من صفوف المصلين بالمسجد كان يشغله الإمام بمفرده في أثناء الصلاة.

---

(١) انظر: خير الدين وانلى (١٩٨٠): المسجد في الإسلام، دمشق، ص٣٢٧.

(٢) للمزيد من التفاصيل انظر: محمد بن عبد الله الزركشي: المرجع السابق، ص٣٦٤.

رابعا: كراهية المنابر الطويلة

عن جابر بن عبد الله أن امرأة قالت[1]: «يا رسول الله، ألا أجعل لك شيئا تقعد عليه، فإن لي غلاما نجارا؟ قال: إن شئت، فعملت المنبر»، وقد عمل المنبر من ثلاث درجات من خشب من طرفاء الغابة[2]، وبذلك جاء المنبر النبوي بسيطا في شكله، متيناً في صناعته، منطقيا في وظيفته.

أما بالنسبة إلى المنابر الطويلة، والتي ظهرت فيما بعد العصر النبوي في أغلب المساجد، فهي تشغل حيزا كبيرا من المسجد؛ وهو ما يؤدي إلى قطع الصفوف الأولى للمصلين إلى كتلتين عن يمينها ويسارها، إلى جانب الإسراف والتبذير في زخرفتها؛ وهو ما يزيد من تكاليف صناعتها وانشغال بعض المصلين بهذه الزخارف، كما أنه كلما قل ارتفاع المنبر زاد عدد المصلين الذين يشاهدون الخطيب، وهو ما يزيد من تفاعل وارتباط المأمومين بالإمام والعكس.

لذلك يُنصح باستخدام المنابر التي لا يتجاوز ارتفاع البسطة التي يقف عليها الخطيب عن مستوى خط البصر إلى ما يعادل ٨٠ سم[3]، شكل (٤٣)، وفي بعض المساجد المعاصرة تم وضع عدة حلول للمنابر يمكن الاستعانة بما يصلح منها حسب طبيعة كل تصميم ومتطلباته منها[4]:

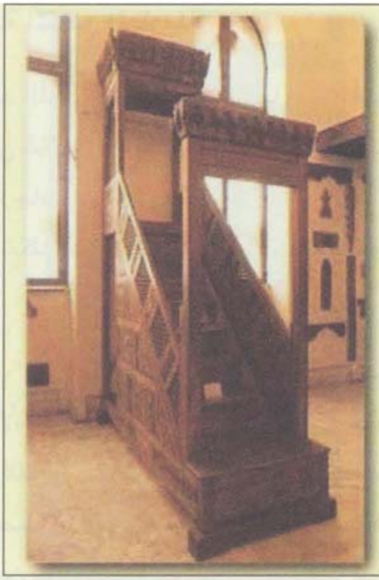
---

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب الصلاة.

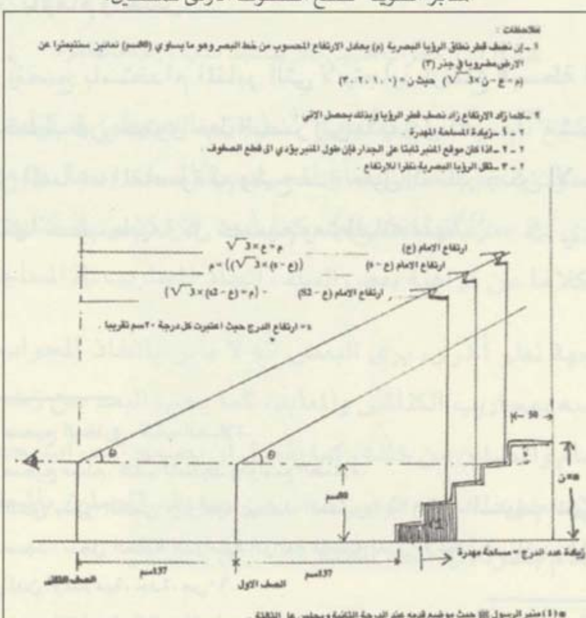
(٢) انظر صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٣) عبد الحق بشير العقبى وإبراهيم محمد الخطيرى (١٩٩٢)، استنباط المنهج الإسلامي لتصميم المسجد، سجل الحلقة الدراسية الرابعة لمنظمة المدن الإسلامية، المغرب ١٩٩١، منظمة العواصم والمدن الإسلامية، جدة، ص٦٠.

(٤) للمزيد من التفاصيل انظر: المساجد في المدن العربية (١٩٩٠)، المعهد العربي لإنماء المدن، السعودية، ص١٨٨، ١٩١، ٢٠٤.



المنابر الطويلة تقطع الصفوف الأولى للمصلين.



شكل (٤٣): دراسة بصرية للوصول للارتفاع الأمثل لمنابر المساجد.

أ- عمل منبر ذي سلم بدرج تبادلي للتقليل من بروزه عن حائط القبلة إلى النصف.

ب- إدخال سلم المنبر خلف محراب القبلة في التصميم المعماري في وحدة تجمع بين غرفة المصاحف وخلوة الإمام.

ج- عمل سلم متحرك يمكن أن يُطْوى أو يتحرك على عجل بحيث يمكن وضعه في وقت الخطبة وتحريكه وقت الصلاة.

خامسا: أفضلية وجود فراغ معماري بدون أعمدة

عن أنس رضي الله عنه قال:«كنا ننهى عن الصلاة بين السواري ونطرد عنها»[١]، وسبب كراهية الصلاة بين السواري أنها مصلى الجن المؤمنين[٢]، لذلك يفضل تقليل عدد الأعمدة في قاعة الصلاة حتى لا تقطع صفوف المصلين أو تعوق رؤية الخطيب على المنبر، وفي حالة توفر الإمكانات المادية فيفضل وجود فراغ معماري واحد لقاعة الصلاة بدون أعمدة، شكل (٤٤).

كما أن البعض الآخر يرى أن السواري لها مميزات مهمة؛ حيث إنها تكون للمصلين المنفردين بمثابة السترة التي تمنع الآخرين من المرور من أمامهم في الصلاة، كما أنها تساعد على التقليل من نفقات الإنشاء، كما يمكن استعمالها كأرفف للمصاحف، شكل (٤٥).

ونحن نرى أن مسألة استخدام السواري من عدمها ترجع إلى الظروف والإمكانات المادية التي يتم إنشاء المسجد فيها، فحيثما توافرت الإمكانات المادية فيمكن إلغاء السواري تماما من قاعات الصلاة، والعكس صحيح.

---

(١) رواه الحاكم.

(٢) عبد الحق بشير العقبى وإبراهيم محمد الخطيرى: المرجع السابق، ص٦١.

سادسا: كراهية الزخارف والكتابة على حوائط المسجد

يرى فضيلة الشيخ الشعراوى - رحمه الله - أن للعلماء في مسألة زخرفة المساجد نظرتين كلتيهما نظرة مخلصة لدين الله[١]:

فالرأي الأول يريد أن تظل للمساجد بساطتها وفطريتها، فيرى ألا يشغل الموجود في المسجد بأي منظر آخر يخرجه من خلوته مع ربه، ويستند إلى بعض الأحاديث الشريفة، منها: «ما أمرت بتشييد المساجد» أي رفع البناء بالشيد والجص، وقال ابن عباس، راوي الحديث:«لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى»[٢]، وليس معنى الحديث عدم الاهتمام بمتانة البناء بل المراد به البساطة وعدم الزخرفة، وقوله صلى الله عليه وسلم: «من أشراط الساعة أن يتباهى الناس في المساجد»[٣]، كما ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لمن يشرف على توسعة مسجد المدينة المنورة في عهده: «أكن الناس من المطر، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس»[٤]، شكل (٤٦).

---

(١) انظر: يحيى وزيري (١٩٩٠): خواطر الشيخ الشعراوي حول عمران المجتمع الإسلامي، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ص٤٠.

(٢) رواه أبو داود بسند صحيح.

(٣) رواه أبو داود بسند صحيح.

(٤) رواه البخاري في صحيحه.



شكل (٤٤): مسجد الدولة الكبير بالكويت مثال جيد لتقليل عدد الأعمدة بقاعة الصلاة إلى الحد الأدنى.



شكل (٤٥): استخدام أعمدة المسجد كرفوف للمصاحف والكتب الدينية.

وبالنسبة إلى الكتابة على جدران المسجد فقد كره أصحاب المذاهب الأربعة الكتابة على جدران وسقف المسجد، حتى لو كان المكتوب شيئا من القرآن، لأن ذلك فيه شغل للمصلى عن ذكر الله، كما أن فيه إضاعة لأموال المسلمين[١].

أما الرأي الثاني، فيرى أنه لا يصح أن يكون بيت الله، وهو منسوب إليه، دون بيوت الناس عناية واهتماما وتشييدا وزخرفة، ويستندون في ذلك إلى أن الزخرفة ليست لونا من الترف إذا كان يتسع لها مال المسلمين، لأنها ترقق عواطف الناس كما «أن الله جميل يحب الجمال»، وأن الفن الجمالي له وظيفة في غذاء ملكات النفس، فقبل أن يمتن الله علينا بأكل الثمرة قال: «انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه».

ويرى الشيخ الشعراوى رحمه الله[٢]: «أن ذلك أمر اعتباري، بمعنى أنه إذا كنا في بيئات لها مظاهر من الكنائس والمعابد فلا يصح أن تكون بيوت عبادتنا، وهي بيوت الله دونها، إلا فيما يصطدم مع قاعدة من قواعد الدين كوجود التصاوير والتماثيل...، والعناية بالشيء لا يعني فسوق زخرفته، فمن الممكن أن تكون عناية تتمثل في وقار الزخارف ووقار التجميل وورع الفن».

ونحن نرى أن عملية بناء المساجد ترتبط ارتباطا مباشرا بالمجتمع أو البيئة التي تبنى فيها، ففي البيئات التي تتوفر فيها الإمكانات المادية فلا مانع من تشييد المساجد والاهتمام بتشطيبها ولكن دون بذخ أو خروج على قواعد الدين، ويمكن ترجمة ذلك معماريا بأن يكون التركيز على اللمسات الجمالية أو الزخرفية بواجهات المسجد الخارجية ومداخله، شكل (٤٧)، أما داخل قاعة الصلاة فيفضل البساطة التي تساعد المصلين على الخشوع، لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾[٣]،

---

(١) انظر كتاب الفقه على المذاهب الأربعة: مرجع سابق، ص ٩٧.

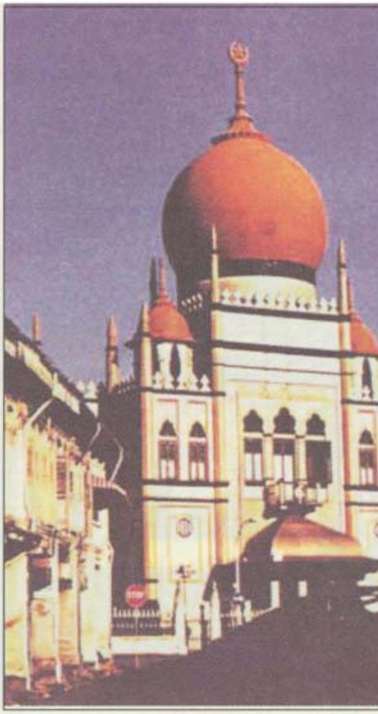
(٢) يحيى وزيري (خواطر الشيخ الشعراوى): مرجع سابق، ص٤٠.

(٣) سورة المؤمنون: الآيتان ١، ٢.

ولكن لا مانع من استخدام مواد نهو جيدة، كتجليد الأجزاء السفلية من الحوائط بالخشب مثلا في البيئات الباردة، أو الرخام في البيئات الحارة، وكل ذلك دون بهرجة في الألوان أو الزخارف.



شكل (٤٦): استخدام اللون الأحمر والمذهب فى أحد مساجد الصين.



مسجد سنغافورة.

شكل (٤٧): يفضل استخدام الزخارف والألوان الزاهية في الواجهات الخارجية للمسجد دون قاعات الصلاة.

أما في البيئات والمجتمعات الفقيرة حيث يتم جمع التبرعات المالية لبناء المساجد فلا يصح أن يخرج بناء المسجد عن عناصره الأساسية، ولكن يراعى الإتقان في بناء المسجد مع استخدام مواد البيئة المتوفرة محليا، بأبسط طرق الإنشاء مما يقلل التكاليف، ومن هنا يتجلى ارتباط المسجد بالبيئة والمجتمع المحلي الذي يبنى فيه[١].

(١) لمعرفة المزيد عن علاقة المسجد بالبيئة انظر: يحيى وزيري (٢٠٠٣): التصميم البيئي للمساجد في ضوء الضوابط الشرعية، من أبحاث مؤتمر الاجتهاد في قضايا البيئة والصحة والعمران، جامعة اليرموك- أربد، الأردن.

سابعا: حكم المقاصير والقواطيع

جاء في كتاب «أحكام المساجد» للزركشي: أن اتخاذ المقاصير في المساجد لم يُعْهد في الصدر الأول، وقال أبو العباس القرطبي في شرح «مسلم»: «لا يجوز اتخاذها ولا يُصَلى فيها لتفريقها الصفوف وحيلولتها من التمكن من المشاهدة». وهذا الرأي مبني على أن المقصورة تقطع الصفوف وفيه ما سبق في المنبر، كما قال ابن الحاج: «المقاصير والدرابزين (القواطيع) من البدع المحدثة، وقد ترتب على ذلك جملة مفاسد، أولها: أن الموضع وقف للصلاة وما فعل فيه لغيرها غصب لمواضع صلاة المسلمين، وثانيهما: أن فيه تقطيع الصفوف وذلك خلاف السنة»[1].

أما بالنسبة لمقاصير النساء فيرى بعض الفقهاء أنها مستحسنة لأنها تحمي النساء من أنظار الرجال، وعلى ذلك فيمكن تحديد أماكن لصلاة النساء إذا كنّ يصلين مع الرجال في قاعة الصلاة نفسها بمقاصير أو قواطيع تكون في آخر القاعة بحيث لا تقطع الصفوف، وإن كان يفضل فصلهن في دور مسروق يتصل فراغيا وسمعيا بقاعة صلاة الرجال.

ثامنا: المآذن

لم تستخدم المآذن في صدر الإسلام، فهي لم تظهر في عهد النبي عليه الصلاة والسلام ولا في عهد الخلفاء الراشدين، وتم إدخالها في عهد عمر بن عبد العزيز حيث تم بناء أربع مآذن، في كل ركن من أركان المسجد مئذنة، وذلك سنة ٩٢ هجرية.

يقول الشيخ ناصر الدين الألباني[2]: «إن المنارة المعروفة اليوم ليست من السنة في شيء، غير أن المعنى المقصود منها وهو التبليغ أمر مشروع بلا

---

(٢) خير الدين وانلي: مرجع سابق، ص٣٨.

(١) المرجع نفسه، ص١٩، ٢٠.

ريب، فإذا كان التبليغ لايحصل إلا بها فهي مشروعة، لما تقرر في علم الأصول أن ما لا يقوم به الواجب إلا به فهو واجب، غير أن من رأيي أن وجود الآلات المكبرة للصوت تغني عن اتخاذ المئذنة كأداة للتبليغ، لا سيما وهي تكلف الألوف المؤلفة من الليرات، فبناؤها والحالة هذه مع كونها بدعة ووجود ما يغني عنها غير مشروع لما فيه من إسراف وتضييع للمال، ومما يدل دلالة قاطعة على أنها صارت اليوم عديمة الفائدة أن المؤذنين لايصعدون إليها البتة مستغنين عنها بمكبرات الصوت».

وعلى الجانب الآخر، فإن البعض يرى أنه لا مانع من إقامة المآذن بالمساجد خاصة الجامعة، حيث إنها تساعد مرتادي المسجد على الاستدلال على موقعه بسهولة، شكل (٤٨)، بعد أن أصبحت المكبرات الصوتية لا تعطي مؤشرا يساعد على الاستدلال على المسجد، خاصة عن بعد، كما أنها أصبحت رمزا تعارفت عليه الأجيال وليس في استخدامها ما ينافي المنهج الإسلامي إذا روعي في تصميمها البساطة والاقتصاد.

ومن وجهة نظرنا، فإننا نرى أنه في حالة المساجد الكبرى الجامعة مع توفر الإمكانيات المادية لا مانع من اتخاذ المآذن، شكل (٤٩)، مع عدم قصر وجودها على الشكل الجمالي أو الرمزي فقط، بل يجب أن يكون لها وظيفة، كأن تكتسب صفة إنشائية تساعد على حمل سقف المسجد على سبيل المثال، أو أن يستخدم سلمها الداخلي للصعود إلى مصلى النساء بالدور المسروق، أو باقي طوابق المبنى إذا كان المسجد جزءاً من مبنى خدمات إسلامية.

كما أنه يمكن تصميم المئذنة بشكل رمزي مبسط، كأن تكون على هيئة شرفة بارزة من سطح المسجد كما هو موجود بالفعل في زاوية «عبد الرحمن كتخذا» بمنطقة المغربلين بالقاهرة القديمة[1]، أو بأي صورة رمزية أخرى تدل على المسجد، وفي الوقت نفسه تقلل من تكاليف إنشائها.

---

(١) تم اقتباس هذه الفكرة أيضا في أحد مساجد محافظة الجيزة بمصر وهو مسجد «أحمد زكي باشا».

تاسعا: غرس الأشجار وإقامة البرك المائية في صحون المساجد

مذهب الإمام الأوزاعي هو أول المذاهب الإسلامية التي أجازت زرع صحون المساجد[1]، وفي إطار هذا التصريح كان زرع صحون بعض المساجد بالشام ثم الأندلس، شكل (٥٠).

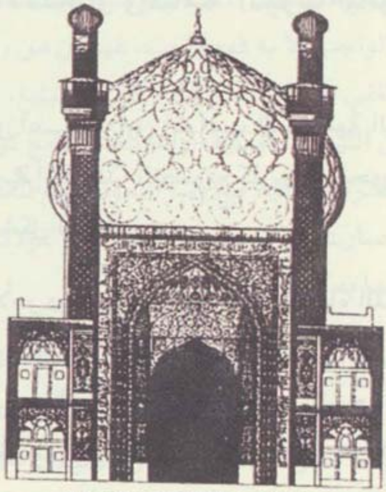
و قد أحدث هذا الأمر رد فعل لدى كثير من الفقهاء الذي كان لهم رأى يخالف ما ذهب إليه الأوزاعى، فقد جاء في حواشي الدر أن العلامة ابن أمير حاج حنفي ألّف رسالة على من جوز غرس الشجر في المسجد قال فيها[2]: « لأن فيه شغل ما أعد للصلاة و نحوها وإن كان المسجد واسعا أو كان في الغرس نفع بثمرته، ولا يجوز إبقاؤه لقوله عليه الصلاة والسلام: « ليس لعرق ظالم حق»[3]، لأن الظلم في وضع الشيء في غير محله وغرس الشجر في صحن المسجد ينطبق عليه ذلك».

---

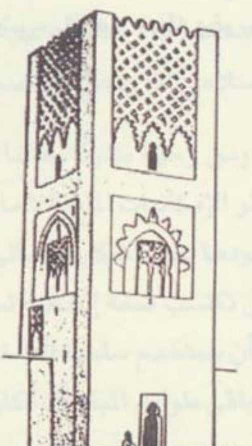
(١) عبد الستار عثمان ومحمد عبد السميع عيد (١٩٩٩): دراسة لإمكانية استخدام المسطحات الخضراء في التشكيل العمراني للمساجد، سجل أبحاث ندوة عمارة المساجد، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض، (ج٣) ص١٧- ٣٦.

(٢) انظر: محمد جمال الدين القاسمي: إصلاح المساجد من البدع والعوائد، المكتب الإسلامي، بيروت، وانظر أيضا الزركشي: مرجع سابق، ص٣٤١- ٣٤٣.

(٣) حديث صحيح.



مئذنة جامع الشاه بمدينة أصفهان

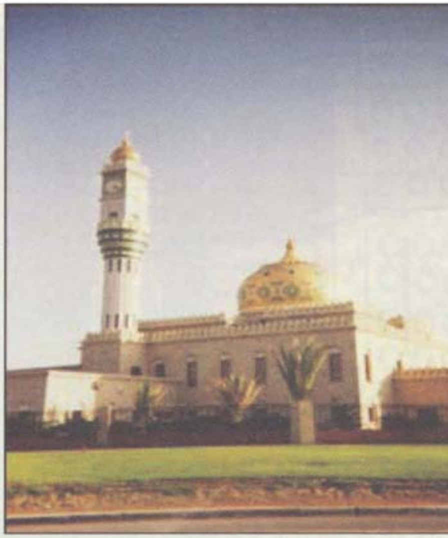


جامع حسان بالرباط (٥٩٥هـ - ١١٩٩م)



مئذنة الجامع الكبير بسامراء (الملوية) (٨٤٧هـ)

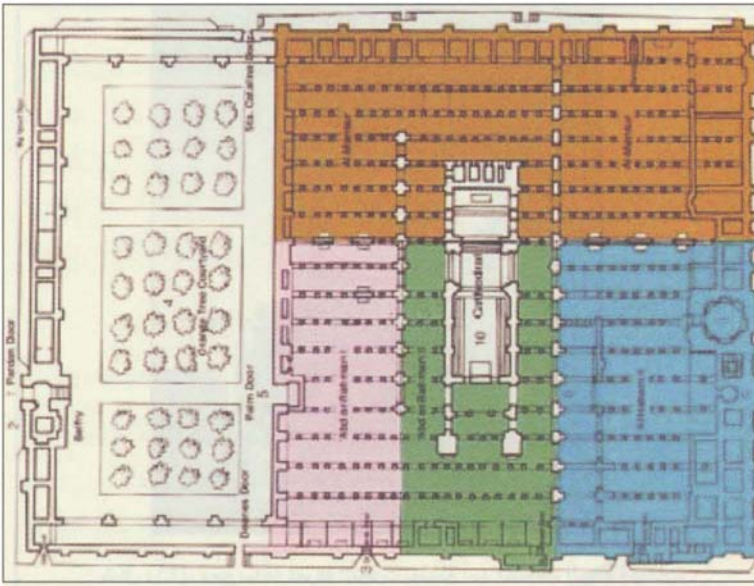
شكل (٤٨): نماذج مختلفة لمآذن مساجد أثرية قديمة.



شكل (٤٩): دمج ساعة لمعرفة التوقيت بمئذنة أحد المساجد الحديثة بعمان.



لقطة جوية لمسجد قرطبة توضح زراعة الفناء بالأشجار.



مسقط أفقي لمسجد قرطبة تظهر فيه الأشجار بفناء المسجد.شكل (٥٠)

ووافقه المحقق ابن أبي شريف الشافعي في كتاب «الإقناع، وشرحه في كتب الحنابلة بقوله(١): «يحرم غرس شجر في مسجد، لأن منفعته مستحقة للصلاة فتعطيلها عدوان، فإن فعل قلعت الشجرة، فإن لم تقلع فثمرها لمساكين المسجد وغيرهم».

وإن كان البعض يرى أنه ليس هناك ما يحول دون استخدام الأشجار والمسطحات الخضراء في التشكيل المعماري للمساجد المعاصرة من خلال ضوابط ومعايير يمكن تلخيصها في الآتي(٢):

أ- ألا تؤثر على الوظيفة الأساسية للمسجد وهي الصلاة.

ب- ألا تؤثر على طهارة المسجد.

---

(١) انظر كتابنا: التعمير في القرآن والسنة، ص١٢٥.

(٢) عبد الستار عثمان ومحمد عبد السميع عيد: مرجع سابق.

ج- ألا تكون سببا في التضييق على المصلين.

د- أن ينتفع بغراسها لصالح المسجد، وتكون وقفا عليه.

هـ- أن تكون هناك منفعة للمصلين من استخدام الأشجار سواء كانت هذه المنفعة بيئية بحيث تحمي المسجد من التلوث الخارجي والأتربة وعادم السيارات والضوضاء، أو منفعة جمالية من خلال روعة وجمال التشكيل العمراني واكتماله باستخدام عناصر التنسيق الطبيعي.

وما ينطبق على غرس الأشجار ينطبق على وجود البرك والبحرات بصحن المسجد، حيث يرى البعض أن وجودها في بعض المساجد القديمة غير مرغوب فيه لأنها تأخذ مساحة كبيرة من صحن المسجد تحول دون الاستفادة منها للصلاة، لا سيما أيام الجُمَع حين يضيق المسجد بالمصلين، فيضطرون للصلاة في صحن المسجد فيصادفون البحرة وما حولها من الأرض المبتلة بالماء، كما أنها تحول دون توسيع المساجد أحيانا بحجة أنها موقوفة للوضوء[1]، كما يرى البعض أن هذه البحرات تصير مزارع للجراثيم والأقذار مع إمكانية الاستغناء عنها بعد أن أصبحت المياه متوفرة بواسطة الأنابيب والصنابير، فيكون لكل متوضئ صنبور يأخذ منه الماء النظيف غير الملوث بالجراثيم.

عاشرا: الميضة ودورات المياه

لم يكن في المسجد النبوي عند إنشائه دورات مياه أو ميضأة[2]، ولكن لا مانع من أن يلحق بالمسجد دورات مياه وأماكن للوضوء؛ حيث إن الطهارة من الحدثين الأكبر والأصغر وكذلك الوضوء من شروط صحة الصلاة، ولا

---

(١) خير الدين وائلي: مرجع سابق، ص٣٠

(٢) فمن حديث أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «.. إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد..» (انظر صحيح البخاري، كتاب الأذان)، والشاهد من الحديث هو الوضوء في البيت أو السوق ثم الذهاب إلى المسجد، وهو ما يوضح عدم وجود الميضأة في المسجد النبوي في ذلك الوقت.

مانع إذا سمحت المساحة والإمكانات المادية من إضافة أدشاش لاستعمال المعتكفين أو عابري السبيل الغرباء عن منطقة المسجد، وذلك لأن الاعتكاف بالمساجد خاصة في العشر الأواخر من رمضان سنة مؤكدة.

ويفضل أن يوجد مبنى أو مكان منفصل لبيوت الخلاء وأماكن الوضوء حفاظا على طهارة المسجد وقاعات الصلاة، أما في حالة تعذر وجود مبنى منفصل فيراعى أن يكون لبيوت الخلاء مدخل خاص منفصل عن مدخل المسجد، كما يفضل ألا تكون دورات المياه في اتجاه القبلة.

أما بالنسبة إلى إماكن الوضوء فيجب الوصول إليها بسهولة من بيوت الخلاء مع وجود حاجز يفصل الجزء غير الطاهر بدورات المياه عن الجزء الطاهر لأماكن الوضوء، والتي يفضل أن تكون في مواجهة القبلة لتحقيق إحدى سنن الوضوء بالنسبة إلى المتوضئ، ويفضل توفير كرسي ثابت من الرخام أو القيشانى أو الموزايكو أمام كل صنبور، بحيث يجلس المتوضئ عليه أثناء وضوئه؛ وهو ما ييسر عملية الوضوء خاصة لكبار السن.

حادي عشر: معايير وتفاصيل أخرى متنوعة

توجد بعض المعايير والتفاصيل المهمة التي يجب أن تراعى عند تصميم وإقامة المساجد، لأنها تيسر على المصلين وتجعل المسجد يؤدي وظيفته على أكمل وجه، ومن هذه المعايير ما يلي:

أ- في حالة وجود المسجد ضمن مبنى للخدمات الإسلامية أو مركز إسلامي، فيفضل أن يكون بالدور الأرضي، كما يراعى ألا يكون مرتفعا عن سطح الأرض بعدد كبير من الدَّرَج، شكل (٥١)، فالأصل التيسير على المصلين وخاصة أن فيهم كبار السن والنساء والضعفاء وربما بعض الأطفال، كما يفضل وجود منحدرات بجوار درج المدخل يمكن أن يستعملها المعوقون وكبار السن والمرضى.

ب- يراعى وجود أبواب قاعة الصلاة بالحوائط الخلفية أو الجانبية، وهو ما يسهل من استكمال الصفوف الأمامية دون تخطٍّ للرقاب، كما يفضل أن تكون مداخل المسجد كمرحلة فاصلة بين الشوارع الخارجية بضجيجها وقاعات الصلاة بخشوعها، وهو ما كان يرى في المساجد القديمة حيث استخدام المداخل المنكسرة كما في مسجد ومدرسة السلطان حسن بالقاهرة على سبيل المثال.



شكل (٥١): وجود عدد كبير من الدرج أمام مدخل جامع الملكة صفية بالقاهرة.

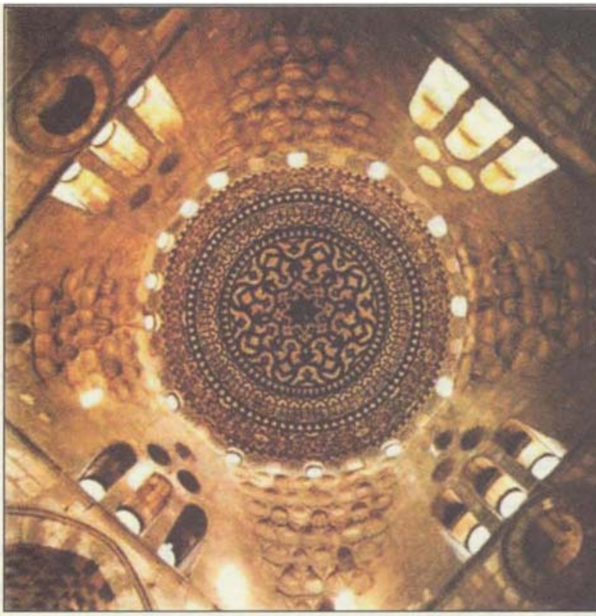
ج- مراعاة توفير الإضاءة والتهوية الطبيعية قَدر الإمكان، عن طريق استخدام الصحون الداخلية المكشوفة أو النوافذ الموضوعة في أماكن مدروسة بقاعات الصلاة، أو استخدام إضاءة علوية من سقف قاعة الصلاة، شكل (٥٢).

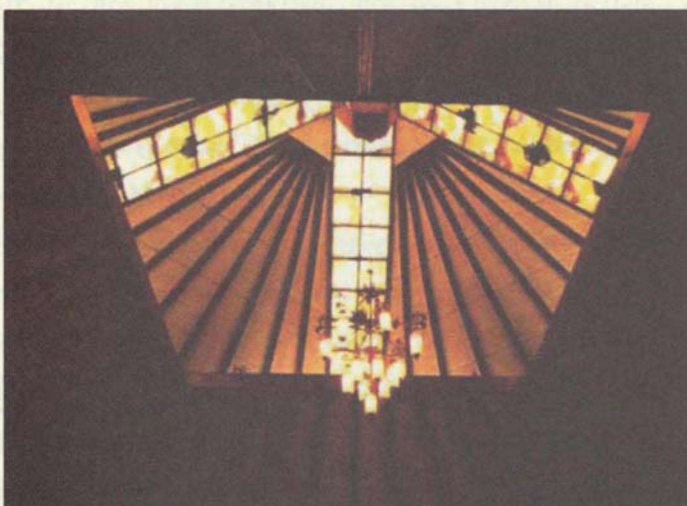
د- يراعى أن يتم تصميم قاعات الصلاة بنسب هندسية وبأساليب تساعد على التصميم الصوتي الجيد، وهو ما يسهل سماع خطبة الجمعة أو دروس العلم بسهولة ويسر، دون الاعتماد على مكبرات الصوت الحديثة كلما أمكن ذلك، وهو ما كان يتم مراعاته في المساجد القديمة التي كانت كبيرة المساحة وتتسع لآلاف المصلين، وفي الوقت نفسه مصممة بأبعاد ونسب تحقق انتقال صوت الخطيب أو العلماء في أثناء إلقاء دروس العلم بسهولة ويسر داخل أرجاء المسجد.

من كل ما سبق يتضح أن الأصل في عمارة المساجد هو عدم شغل المصلي عن العبادة أو ذكر الله، مع تهيئة الجو المناسب لذلك، كما اتضح أنه لا مانع من استخدام تقنيات العصر الداخلة في نطاق الإمكانات المادية للمجتمعات المسلمة، ما دامت تسهل هذه التقنيات من أداء المسجد لوظيفته ولا تتعارض مع قواعد الدين.

وليتذكر المصممون وعمار المساجد قول رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام: «من أحدث في مسجدنا حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[1]، والمراد هنا من أدخلَ في المساجد بدعة تتنافى مع روح المسجد وهي البساطة، أو أدخل على المسجد شيئا يشغل الناس عن الصلاة.

(١) انظر: حسين مؤنس، مرجع سابق، ص٢٩.





شكل (٥٢): استخدام الإضاءة العلوية لقاعات الصلاة، نموذجان أحدهما قديم والآخر معاصر.

المبحث الثاني

ضوابط عمارة المساكن

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنًا ...... ﴾[1]، وقوله «سكنا» أي تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة[2]، فالمسكن هو المكان الذي يستطيع الإنسان أن يتمتع فيه بقسط من الراحة والاطمئنان فيه.

ونحن، باعتبارنا مسلمين، لنا دين قيِّم وضع لنا منهجا متكاملا للحياة وأسلوب المعيشة، لذلك فإن تصميم المسكن وعمارته من الداخل والخارج يجب أن ينعكس فيهما منهجُ الإسلام وتعاليمه، وسيكون بحثنا عن تأثير منهج الإسلام على العمارة الخارجية والداخلية للمسكن مع تركيزنا على عمارة المسكن من الداخل حيث يخلد الإنسان إلى الراحة والهدوء والاطمئنان النفسي.

والأسلوب الذي اتبعناه لمعرفة المعايير التصميمية لمسكن المسلم المعاصر مبني على توضيح المنهج الإسلامي الذي ينبع من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية إلى جانب توجيهات علماء المسلمين الأفاضل، ثم نستنبط المضمون الإسلامي من هذا المنهج، وبناء على ذلك نقوم بتوضيح تأثير هذا المضمون على شكل المسكن وتصميمه.

لقد حاولنا في هذا المبحث أن نوضح كيف يمكن للمسلم المعاصر أن يسترشد بالمنهج الإسلامي عند تصميم بيته، وذلك بتحويل هذا المنهج إلى معايير تصميمية واضحة، ومن أهم هذه المعايير التصميمية الواجب توافرها في مسكن المسلم المعاصر ما يلي[3]،[4]:

(١) سورة النحل: من الآية ٨٠.

(٢) انظر تفسير الآية رقم ٨٠ من سورة النحل في «الجامع لأحكام القرآن» للإمام القرطبي.

(٣) انظر: يحيى وزيري (١٩٩٢). تأثير المنهج الإسلامي على العمارة الداخلية والخارجية للمسكن، كتاب أبحاث الحلقة الدراسية الرابعة لمنظمة العواصم والمدن الإسلامية- الرباط، المغرب (١٩٩١)، منظمة العواصم والمدن الإسلامية، جدة، ص١٨٧- ١٩٦.

(٤) يحيى وزيري (التعمير في القرآن والسنة): مرجع سابق، ص ٨٠ وما بعدها.

أولاً: الخصوصية (ستر العورة)

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1]، (خصوصية من الخارج)، كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2]، (خصوصية من الداخل).

من الآيتين الكريمتين السابقتين يتضح أن خصوصية بيت المسلم سواء أكان ذلك من الخارج أم الداخل أمر واجب وتوجيه قرآني يجب أن يراعى عند تصميم المسكن، وعلى ذلك فالخصوصية التي يجب أن تتوفر بالمسكن من الخارج، يمكن أن تظهر في تصميم واجهات المسكن الخارجية عن طريق النوافذ والشرفات، بحيث يتم الحرص على أن تفتح ضلف النوافذ الخارجية (الشيش) بنفس أسلوب المشربيات التقليدية، شكل (٥٣)، أما بالنسبة للضلف الزجاجية للنوافذ والشرفات فيمكن أن يستخدم الزجاج الملون الذي يساعد على كسر حدة أشعة الشمس ويوفر من تكاليف استخدام الستائر خلف النوافذ، أما الشرفات التقليدية فيمكن أن يوضع أمام أبوابها من جهة الشارع الخارجي بعض القواطيع البسيطة من الخشب البغدادلي مثلا، وبذلك لا ينكشف مَنْ بداخل الغرفة عن طريق الشرفة إذا ما فتحت.

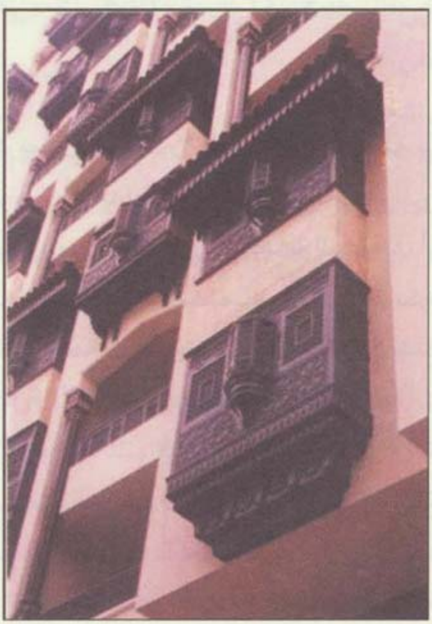
(١) سورة النور: الآية ٢٧.

(٢) سورة النور: الآية ٥٨.



نموذج معاصر لتصميم الشباك الشيش بنفس طريقة المشربية التقليدية.

(من تصميم المؤلف)



مشربيات في واجهات برج سكني حديث.

(من تصميم المؤلف)

شكل (٥٣): توفير الخصوصية بواجهات المساكن من الخارج.

أما المداخل في المساكن العائلية الخاصة، فيمكن أن تصمم بنفس أسلوب المدخل المنكسر في المساكن الإسلامية القديمة، أو بأي أسلوب يوفر لهذه المداخل الخصوصية، مع مراعاة أن يكون للمسكن مدخلان أحدهما أمامي للرجال والزوار، والآخر خلفي للنساء وأهل البيت.

وفى حالة توفر المساحات اللازمة والإمكانات المادية، فيفضل تصميم المسكن على فناء داخلي بحيث تنفتح عليه أغلب غرف المسكن مما يوفر لها الخصوصية، شكل (٥٤)، وفى حالة الوحدات السكنية التقليدية (الشقق السكنية) في العمارات السكنية، يصبح من اللازم إيجاد البديل التصميمي للفناء الداخلي، ويكون ذلك بتوفير شرفة معقولة المساحة بحيث تطل عليها أكبر عدد من غرف الوحدة السكنية، وتكون هذه الشرفة بمثابة الرئة للوحدة السكنية، خاصة إذا ما وضعت بعض النباتات بها، مع مراعاة أن تتمتع هذه الشرفة بالخصوصية اللازمة، شكل (٥٥- أ).

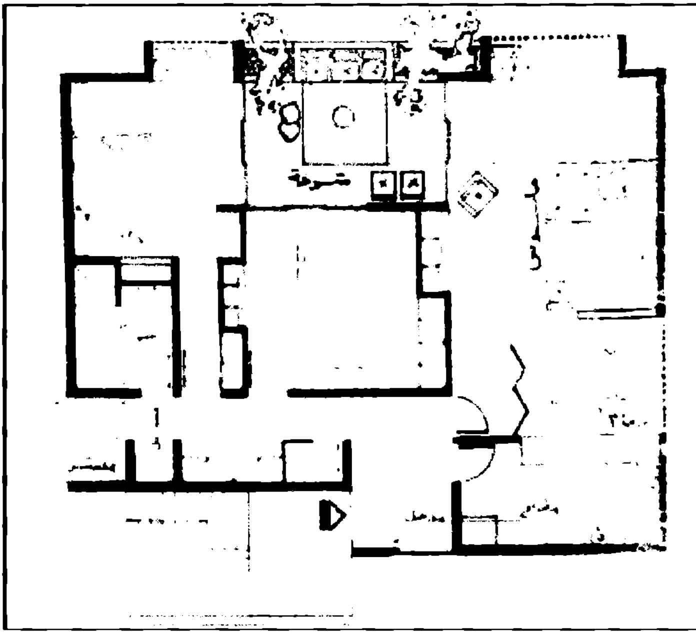
وبالنسبة إلى خصوصية المسكن من الداخل، فيكون ذلك بفصل جناح النوم وأهل البيت عن جناح المعيشة والزوار، ويكون ذلك إما بالفصل أفقيا عن طريق وجود مدخل متوسط للوحدة السكنية يخدم الجناحين، شكل (٥٥- ب)، أو بالفصل بين الجناحين رأسيا كما في التصميم التقليدي للربع الإسلامي، حيث يتم وضع جناح المعيشة والزوار في الدور الأرضي ويوضع جناح النوم في الدور الأول ويربط بينهما دَرَج داخلي.



شكل (٥٤): صورة جوية توضح جزءاً من أفنية منازل مدينة مراكش القديمة.



شكل (٥٥-أ): منظور لشرفة تستعمل كبديل للفناء الداخلي.



شكل (٥٥- ب): مسقط أفقي للوحدة السكنية.

شكل (٥٥): نموذج تصميمي معاصر لوحدة سكنية بها شرفة بمساحة معقولة، تستعمل كبديل للفناء الداخلي، كما يلاحظ أيضا الفصل بين جناح النوم وجناح الضيوف.

ثانيا: الاقتصاد مع الإتقان والبعد عن الإسراف والتبذير

يقول الله سبحـــانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾[1]، (دعوة للاقتصاد وعدم الإسراف والتبذير)، كما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[2]، (الله يحب أن يكون المقاتلون في سبيله كالبنيان المرصوص استحسانا منه للإتقان في البناء).

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٢٧.

(٢) سورة الصف: الآية ٤.

كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1]، (عدم المبالغة في تزيين المسكن وبهرجته).

والآيات الكريمة السابقة تحض، في مجمل معناها، على مراعاة العوامل الاقتصادية عند تصميم وبناء المساكن، ولكن مع الإتقان وعدم المبالغة في تزيين وبهرجة المسكن، لأن ذلك من متاع الحياة الدنيا الزائل.

والمضمون الإسلامي السابق يمكن أن يؤثر على تصميم كل من جناحيْ النوم والمعيشة، فبالنسبة إلى جناح النوم فمن الأهمية وجود غرفة نوم رئيسية ثم غرفة أو أكثر للأطفال، ولكن بالنسبة إلى جناح المعيشة فلا داعي لتأثيث عدد كبير من الغرف لا تستعمل أغلبها إلا نادرا في المناسبات، فلا داعي لوجود غرفة للاستقبال وأخرى للطعام لا تستعمل إلا في الولائم، وخاصة بالنسبة إلى الإسكان المتوسط وما دون مستواه، لذلك يستحسن تصميم غرفة معيشة واستقبال بمساحة معقولة تكون متعددة الأغراض.

كما يفضل أن تتميز هذه المجالس بالسعة، وذلك لرواية سعيد الخدري أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «إن خير المجالس أوسعها»[2]، وبذلك يمكن أن تؤدي غرفة المعيشة أكثر من وظيفة، كاستقبال الزوار والجلوس وتناول الطعام، وأداء الصلاة بالنسبة إلى صاحب البيت وزواره.

كما يحتم العامل الاقتصادي على المصمم توفير الدواليب الحائطية الثابتة خاصة في غرف النوم، إلى جانب توفير بعض الأثاث الثابت المبني

---

(٢) سورة الزخرف: الآيات من ٣٣ إلى ٣٥.

(١) انظر: الإمام البخاري (١٩٧٩): الأدب المفرد، مكتبة الآداب ومطبعتها، القاهرة، ص٣٢٩.

(المصاطب) إن أمكن، شكل (٥٦)، كما يمكن تصميم النوافذ بحيث تبرز جلساتها للخارج بعمق يكفي ويسمح بالجلوس عليها كما في المساكن الإسلامية التقليدية، حيث كان الأثاث يستعمل نهارا للجلوس واستقبال الزوار، وليلا لنوم أهل البيت، وبذلك يكون المصمم قد ساهم في تقليل التكاليف المادية التي يتكبدها الساكن لتأثيث المسكن بعد أن يقطنه (خاصة في حالة إسكان الشباب والإسكان الاقتصادي).

والدعوة إلى الاقتصاد لا تعني أن تخلو البيوت الإسلامية من اللمسة الجمالية أو الفنية، ولكن يمكن لكل أسرة أن تختار ما يناسب إمكاناتها المادية لتجميل مسكنها، وهو ما سنوضحه في المعيار الخاص باللمسات الجمالية.







شكل (٥٦): نماذج لاستخدام الأثاث المبني (المصاطب)، أفكار تصلح في إسكان الشباب

(من تصميم المؤلف).

ثالثا: أفضلية المسكن الواسع لتوفير عدد غرف مناسب

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾[١]، (دعوة لعدم التضييق على المطلقات في المساكن، فما بالنا في حالة زوجين يعيشان معا في بيت واحد)، وعن نافع بن عبد الحارث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من سعادة المرء: المسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيئ»[٢]، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع»[٣].

والمضمون الإسلامي المستنبط من الآية الكريمة والأحاديث السابقة يلفت الأنظار إلى أنه في حالة توفر الإمكانيات المادية والمساحات الكافية، فيفضل المسكن الواسع لتوفير عدد غرف مناسب خاصة لجناح النوم، ويمكن تطبيق هذا المضمون عن طريق توفير غرفة نوم رئيسية للوالدين مع تزويدها بدورة مياه خاصة إن أمكن ذلك، مع توفير غرف مستقلة للأطفال من الذكور والإناث يحقق إمكانية التفريق بينهم في المضاجع، عملا بقول الرسول عليه الصلاة و السلام: «..وفرقوا بينهم في المضاجع».

رابعا: أفضلية توجيه غرف المسكن جهة القبلة

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لكل شيء سيدا، وإن سيد المجالس قبالة القبلة»[٤]، كما أن رسول الله عليه الصلاة والسلام في حديث زيد بن ثابت قال: «فعليكم بالصلاة في بيوتكم، فإن خير

---

(١) سورة الطلاق: من الآية ٦.

(٢) رواه الإمام البخاري في كتابه «الأدب المفرد»، ص١٢٤.

(٣) رواه أبو داود بإسناد حسن.

(٤) رواه الطبراني.

صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة»[١].

فمن الأفضل للمسلم في جلوسه أن يكون جهة القبلة عملا بالسنة النبوية[٢]، كما يفضل أداء صلاة النافلة داخل البيوت والمساكن، لذلك فإنه يفضل إن أمكن في تصميم غرف المسكن وتوجيهها جهة القبلة، وذلك لتسهيل عملية أداء الصلاة داخل هذه الغرف، خاصة بعد فرشها، وبذلك لا يتعارض أسلوب فرش الأثاث مع الذي يصلي مستقبلا القبلة.

وبالنسبة إلى غرف المعيشة فيفضل أن تكون مستطيلة المسقط بحيث يكون الضلع الأكبر للمستطيل مواجهاً القبلة، وهو ما يعطي فرصة لأكبر عدد من الجالسين أن يكونوا في مواجهة القبلة.

خامسا: أفضلية عدم استقبال أو استدبار القبلة في دورات المياه

فمن حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «لا تستقبلوا القبلة بغائط أو بول ولا تستدبروها، ولكن شرقوا أو غربوا»[٣]، وقد قال ابن عمر: «إنما نهى عن ذلك في الفضاء، فإذا كان بينك وبين القبلة شيء يسترك فلا بأس»[٤].

إن أفضلية عدم استقبال أو استدبار القبلة في دورات المياه تنعكس على وضع المرحاض بدورة المياه، بحيث لا يستقبل أو يستدبر القبلة، كما يفضل فصله عن باقي الأجهزة الصحية بباب مستقل؛ وهو ما يسهل من استعمال

(١) أخرجه الإمام البخاري.

(٢) يروى سفيان بن منقذ عن أبيه قال: «كان أكثر جلوس عبد الله بن عمر وهو مستقبل القبلة»، رواه البخاري في الأدب المفرد، ص٣٢٩.

(٣) رواه السبعة.

(٤) رواه أبو داود.

باقي الأجهزة الصحية في حالة استعمال أي شخص للمرحاض، أما بالنسبة إلى حوض غسيل الأيدي فيفضل أن يكون قبالة القبلة لتحقيق إحدى سنن الوضوء بالنسبة إلى المتوضئ.

سادساً: النهي عن الجلوس على جلود السباع والحرير الطبيعي وستر الجدران به:

عن أبي المليح عن أبيه رضي الله عنه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن جلود السباع»[1]، وفي رواية أخرى للترمذي: «نهى عن جلود السباع أن تفترش».

وعن حذيفة قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لبس الحرير والديباج وأن يجلس عليه، وقال: «فإنها لهم في الدنيا (أي الكفار) ولكم في الآخرة»[2]، كما قال الحنابلة: «يحرم الجلوس على الحرير والاستناد عليه وتوسده وستر الجدران به إلا الكعبة فإنه يحل كسوتها به»، أما المالكية فالمشهور عندهم تحريم الجلوس على الحرير والاستناد عليه ولو فرش عليه شيء آخر[3].

فالأحاديث الكريمة السابقة تنهى المسلم عن الجلوس على جلود السباع، والجلوس على الحرير الطبيعي وستر الجدران به، وهو ما يؤكد على عدم افتراش جلود السباع أو استخدامها كبسط داخل بيت المسلم، مع عدم استعمال الكسوات من الحرير الطبيعي سواء للمجالس أو الوسائد أو الحشايا، وعدم ستر الجدران أو النوافذ أو الأبواب بالحرير الطبيعي.

---

(١) رواه أبو داوود والترمذي والنسائي بأسانيد صحاح.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، انظر أيضا: سبل السلام للإمام الصنعاني (ج١-٢)، ص٥٢٥. مكتبة عاطف، القاهرة.

(٣) ارجع إلى: الفقه على المذاهب الأربعة: مرجع سابق.

سابعا: النهي عن تصوير الكائنات الحية

عن أبي زرعة قال: «دخلت مع أبي هريرة دار مروان بن الحكم فرأى فيها تصاوير وهي تبنى فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة أو فليخلقوا حبة أو فليخلقوا شعيرة»[1].

فالحديث الشريف ينهى عن تصوير الكائنات الحية سواء كانت على هيئة لوحات فنية أو جدارية مسطحة أو على هيئة تماثيل منحوتة، ولذلك يجب أن ينحصر وجود اللوحات الفنية أو الجدارية على تصوير الطبيعة أو كل ما لا روح فيه، أو الأشكال الزخرفية التجريدية أو الهندسية دون إسراف أو مبالغة، شكل (٥٧).

وكبديل للتصاوير التي تحتوي على الكائنات الحية يمكن استخدام الكتابة العربية على شكل آيات قرآنية بحيث تعبر كل آية عن وظيفة الجزء الموضوعة فيه، فمثلا يوضع في مدخل المسكن قوله تعالى:» فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة»، ويوضع في الركن الخاص بتناول الطعام قوله تعالى:» وكلوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين»، والركن الخاص بالمكتبة والاطلاع واستذكار الدروس يوضع فيه قوله تعالى: «وقل رب زدني علما»، وهكذا... فوجود هذه الآيات القرآنية يعد تذكيراً مستمراً لأهل البيت وزوارهم بآداب وتعاليم الإسلام، إلى جانب إضفاء اللمسة الجمالية على المسكن من الداخل.

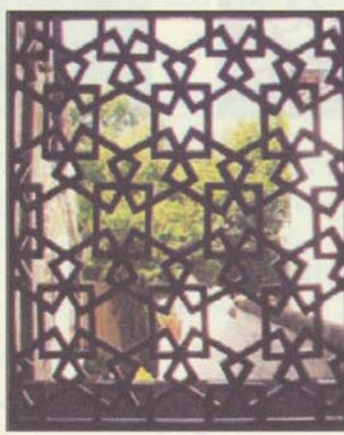
---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد.

ثامنا: النهي عن استعمال آنية الذهب والفضة وما يقاس عليها:

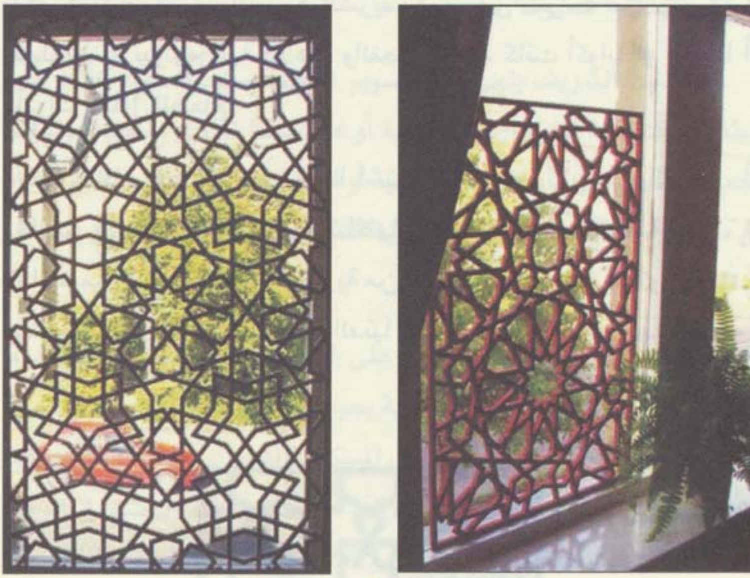
عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لاتشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافيهما، فإنها لهم (أي الكفار) في الدنيا ولكم في الآخرة»[1]، والحديث الشريف هنا ينهى صراحة عن أن يستعمل المسلمون في بيوتهم آنية الذهب والفضة، سواء كانت أكوابا أو أطباقا أو كأدوات لتناول الطعام.

كما يدخل في هذا النهي أيضا استعمال مقابض الأبواب والنوافذ، أو مقابض حنفيات الأحواض وما شاكلها من مادة الذهب والفضة أيضا، لما في استعمال هذه المكملات المعمارية من إسراف وبذخ منهي عنه وربما يؤدي استعمالها إلى الكِبْر والرغبة في الدنيا ونسيان الآخرة والعمل لها.



---

(١) حديث متفق عليه.



شكل (٥٧): نماذج معاصرة لتوظيف الوحدات الزخرفية الهندسية الإسلامية

في النوافذ الخارجية.

تاسعا: توفير اللمسات الجمالية

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:«إن الله جميل يحب الجمال»[1]. فالجمال ضرورة في حياة المسلم وأحد المعايير الواجب توافرها في بيته إن أمكن ذلك، فيمكن أن يكون أثاث البيت بسيط التصميم ولكنه جميل الشكل، فمن الأفكار سهلة التطبيق استخدام وحدات إضاءة ذات طابع إسلامي سواء كانت مصنوعة من النحاس أو الخشب أو أي مادة أخرى حسب إمكانيات أصحاب البيت، تجمع ما بين الوظيفة والشكل الجميل معاً، شكل (٥٨).

ويمكن إضفاء اللمسات الجمالية بالمسكن عن طريق إيجاد حديقة صغيرة إذا سمحت المساحة بذلك، ويفضل أن تكون داخل فناء يتمتع بالخصوصية حتى يتسنى لأهل الدار حرية التمتع والجلوس فيها بعيداً عن أنظار المتطفلين.

وفي حالة العمارات السكنية، يمكن استخدام أسطح هذه العمارات عن طريق عمل أسوار مرتفعة لهذه الأسطح من مواد خفيفة كالخشب لتوفير الخصوصية لها، وعمل حديقة علوية صالحة لاستعمال ساكني العمارة، وهو ما يعتبر إحياء لفكرة حدائق الأسطح التي كانت موجودة في بعض البيوت الإسلامية القديمة في مدينة القاهرة على سبيل المثال.

عاشرا: النهي عن التطاول في البنيان

عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[2]: «لا تقوم الساعة حتى يتطاول الناس في البنيان»، كما يبين عليه الصلاة والسلام في الحديث علامات الساعة: «وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة

---

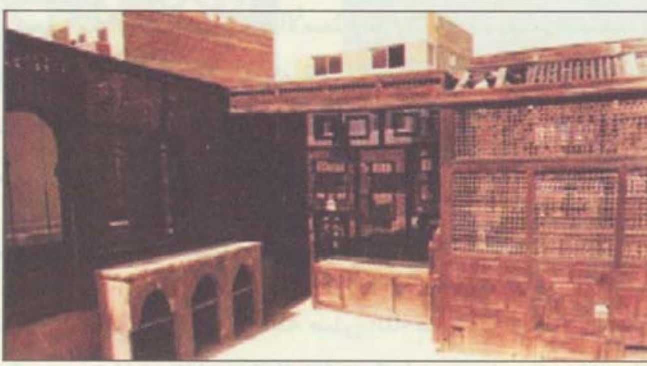
(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب المفرد، ص١٣٢.

يتطاولون في البنيان»، قال النووي في شرح الحديث[1]: «إن من أهل البادية وأشباههم من أهل الحاجة والفاقة تبسط لهم الدنيا حتى يتباهون في البنيان»، وقال ابن حجر[2]: «معنى التطاول: التفاخر والتكاثر»، وقال في موضع آخر[3]: «إن كلا منهم يبني بيتاً يريد أن يكون أعلى من بنيان الآخر، ويحتمل أن يكون المراد المباهاة في الزينة والزخرفة، أو أعم من ذلك».







شكل (٥٨): استخدام وحدات الإضاءة الإسلامية لإضفاء لمسة جمالية على المسكن من الداخل.

(١) انظر: شرح صحيح مسلم للإمام النووي (دار الفكر، بيروت).

(٢)، (٣) انظر: فتح الباري للإمام ابن حجر العسقلاني، وانظر أيضا: أحمد محمد السعد: مرجع سابق.

وعن عبد الله الرومي قال: «دخلتُ على أم طلق فقلت: ما أقصر سقف بيتك هذا، قالت: يا بني، إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى عماله: ألا تطيلوا بناءكم فإنه من شر أيامكم»[1].

والعلة من النهي عن التطاول في البنيان إذا كان فيه تفاخر ومباهاة، أو وقوع الضرر على الجيران في حالة جرح خصوصيات مساكنهم أو حجب الشمس والهواء عنهم، من هنا فإن ضابط تعدد الطوابق في العمارات السكنية يكون للحد الذى يضمن التوازن بين الكثافات السكنية والمسطحات والفراغات التي تبنى عليها، وذلك للوقاية من العديد من الأمراض الاجتماعية والأضرار الأخلاقية التي يمكن أن تنتج عن التطاول في البنيان بلا ضابط أو رابط.

حادي عشر: الفصل بين عناصر الاتصال الرأسية للرجال والنساء

ورد في الحديث النبوي الصحيح: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس معها ذو محرم، فإن ثالثهما الشيطان»، كما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾[2].

فالإسلام ينهى عن اختلاء الرجال بالنساء مهما كانت وجاهة الأسباب، كتدريس العلوم الدينية أو تحفيظ القرآن وما شابه، فالقاعدة الفقهية المعروفة تقرر أن «درء المفاسد مقدَّم على جلب المنافع».

وبالنظر إلى العمارات السكنية المرتفعة نجد أن هذا الاختلاء يمكن أن يحدث في حالة استعمال رجل وامرأة أجنبية عنه لوسائل الاتصال الرأسية

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، ص١٣٢.

(١) سورة الأحزاب: من الآية ٥٣.

كالمصاعد، من هنا فإننا نوصي في حالة توفر الإمكانيات المادية بتخصيص مصعد للنساء وآخر للرجال، أما في حالة وجود مصعد واحد فيفضل وضعه داخل بئر الدرج حتى يكون مكشوفا من بداخل المصعد لمن يستعمل الدرج، أو أن يوضع المصعد على إحدى واجهات المبنى الخارجية وتصمم جوانبه من زجاج.

هذه هي بعض أهم معايير وضوابط تصميم مسكن المسلم المعاصر، وهي كلها مستنبطة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، واضعة بذلك أهم الثوابت الواجب توافرها في مسكن المسلم مع مراعاة التوافق مع كل بيئة يبنى فيها المسكن، وكذلك الإمكانيات المادية لكل مجتمع.

المبحث الثالث

محددات تخطيط المدينة المعاصرة

المدينة هي غاية العمران البشري، ولكل مدينة مظهر يعبر عن جوهرها والهدف من إنشائها، وجوهر المدينة الإسلامية ينبع ويعتمد على التزام أهلها وساكنيها بتطبيق شرع الله، والعمل بتعاليم الإسلام وبتطبيق المنهج الإسلامي في تخطيطها وتصميم مبانيها.

وفى المبحثين السابقين من هذا الفصل أوضحنا كيفية تفعيل المنهج الإسلامي في تصميم المسجد والمسكن، كأهم نموذجين من نماذج مباني المدينة على مختلف أنواعها، وبذلك يبقى أن نوضح كيف تنتظم مباني وفراغات وشوارع المدينة الإسلامية في تخطيط ونظم واحد، عاكسا تأثير المنهج والرؤية الإسلامية للعمران.

أولا: محددات اختيار مواقع المساجد بالمدن

بالرجوع إلى تخطيط المدينة المنورة في نهاية عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، نجد أنها كانت تتكون من جزئين رئيسيين[(١)]: الكتلة العمرانية الرئيسية ومنازل القبائل (يمكن أن يطلق عليها حسب المصطلحات الحديثة الضواحي)، واشتملت الكتلة العمرانية الرئيسية على تسعة أحياء سكنية، أما الضواحي فكانت تتكون من عدة بيوت تحيط بها وبالكتلة العمرانية المزارع، وكان المسجد النبوي في مركز الكتلة العمرانية، شكل (٥٩)، ويبدو أن المساجد المحلية شكلت أيضا نواة التجمع للأحياء السكنية التسعة، فقد

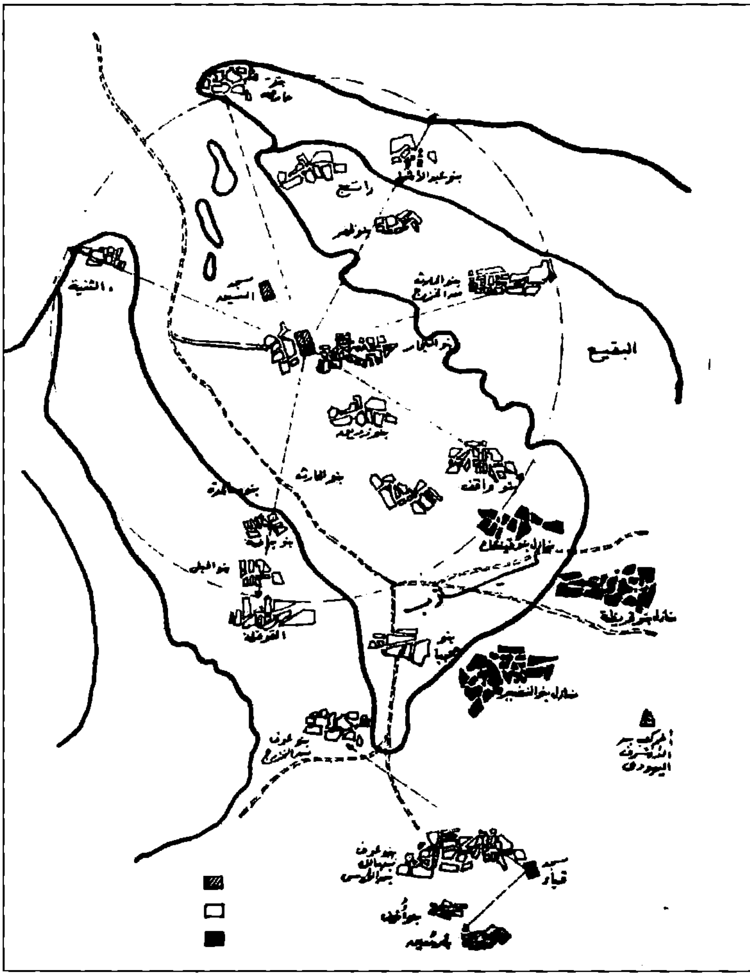
---

(١) فهد بن نويصر الحريقى (١٩٩٩): دور المسجد في تشكيل النسيج العمراني وتأكيد هوية المدينة الإسلامية المعاصرة، من سجل ندوة "عمارة المساجد" (المجلد العاشر)، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض، ص٢٧-٣٦.

أشار السمهودي أنه كان بالمدينة تسعة مساجد يسمع فيها مؤذن النبي عليه الصلاة والسلام فيصلون في مساجدهم ولا يأتون مسجد النبي عليه الصلاة والسلام إلا يوم الجمعة، أما بقية المساجد (٣٤ مسجدا) فغالبا أنها كانت تقع في الضواحي، كما حدد الرسول عليه الصلاة والسلام مساحة فضاء تقام فيها صلاة العيدين، وعرفت «بمصلى العيد»، وهو ما يشير إلى أن فكرة التوزيع العادل لمواقع المساجد بالمدن الإسلامية قد نشأت أصلا في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة.

لقد ذكر الماوردي وابن الربيع في تصورهم عن المدينة الإسلامية وفق معطيات مأخوذة من الضوابط الشرعية[1]، أن بناء مسجد جامع للصلاة في وسطها ليقرب على جميع أهلها هو أحد ثمانية شروط لإنشاء مدينة إسلامية.

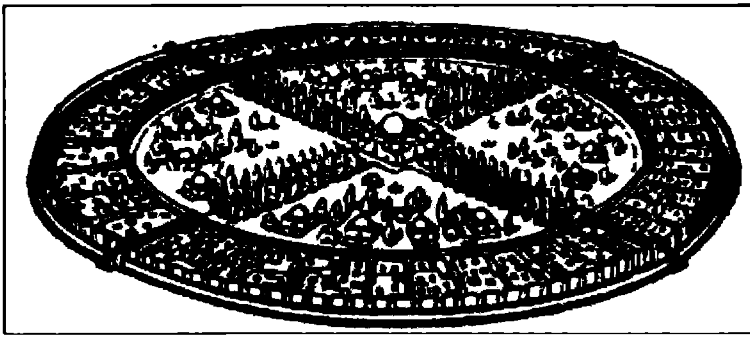
(١) سعد بن سعيد الثقفان (١٩٩٩): المسجد في المدينة السعودية بين الواقع والمأمول، من سجل ندوة عمارة المساجد (المجلد العاشر)، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض، ص١٨١-٢١٥.



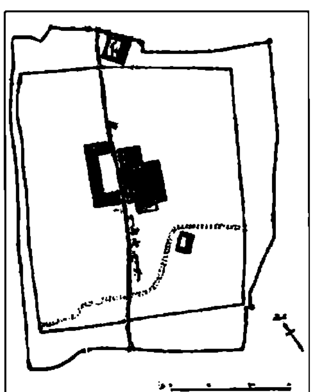
شكل (٥٩): مسجد الرسول يتوسط مساكن المسلمين، مع وجود مسجد بكل منطقة لأداء الصلوات الخمس (المدينة المنورة على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام).

لقد كان الهدف من اختيار الموضع المتوسط لإنشاء المسجد الجامع في المدينة الإسلامية اعتبار وظائفه، وليكون قريبا من كل أطراف المدينة حتى يسهل على المصلين التوجه إليه، سواء أكانوا من أهل المدينة أم من المناطق المجاورة لها والتي لا تقام فيها خطبة، شكل (٦٠)، والوسطية لم تكن

شرطا لازما في التخطيط بقدر ما هي مرتبطة بالقرب من مناطق سكنى العامة[1]، ولا أدل على ذلك من وجود بعض النماذج من المدن التي لم ينشأ مسجدها الجامع في الوسط كسامراء التي أنشئ مسجدها الجامع في القطاع الشمالي من المدينة قريبا من سكنى العامة والأسواق، بينما خصص القطاعان الأوسط والجنوبي لخطط القواد والأجناد، وكذلك أنشئ الجامع الأزهر في القاهرة في قطاعها الجنوبي قريبا من مناطق سكنى العامة في جنوبها، شكل (٦١).



شكل (٦٠): المسجد الجامع وقصر الحكم في مركز مدينة بغداد المدورة.



شكل (٦١): انتشار المساجد في مدينة القاهرة القديمة حسب تركز سكن العامة.

(١) محمدعبد الستار عثمان (١٩٨٨) المدينة الإسلامية، (سلسلة عالم المعرفة)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص٢٣٥.

ومما يشير إلى أن توسط المسجد الجامع بالمدينة الإسلامية كان في الوقت الذي اقتصرت فيه المدينة على خطبة واحدة، ما كان في القاهرة ومصر حيث كان فيهما أربعة مساجد جامعة هي: جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الأزهر وجامع الحاكم، وكان تناوب الصلاة الجامعة فيها قائما حتى أفتى الفقهاء بجواز إقامة أكثر من صلاة جامعة في المدينة، فتعددت الخطبة وكثرت المساجد الجامعة كثرة واضحة مع بداية العصر المملوكي، وكان لهذه الكثرة أثرها في انفكاك تأثير المسجد الجامع في تخطيط شوارع امتدادات المدينة بعد ذلك[١].

إن انعزال المسجد عن بيئته العمرانية يمكن أن يساهم في إضعاف التواصل والترابط ما بين أفراد وجماعات المجتمع المسلم مع المسجد، فكلما زاد انعزال المسجد عن البيئة العمرانية لعب المناخ، على الأقل، دورا حيويا في المساهمة في أداء المسلمين للصلاة في أماكن عملهم أو إقامتهم بدلا من الذهاب إلى المساجد لإقامة صلاة الجماعة بها، لذلك ظهر أخيرا اتجاه لدمج وإقامة المساجد في المراكز التجارية المقامة بوسط العاصمة الماليزية «كوالا لامبور»، ومثال ذلك مسجد النور بمبنى مركز المدينة، حيث يعتبر المسجد أحد المرافق الهامة بهذا المجمع التجاري، وإذا عرفنا أن طبيعة المناخ الرطب في ماليزيا تجعل عمليات التسوق أفضل في المساء حيث تكون طبيعة الجو أفضل نسبيا، وحيث إن الوقت ما بين أذان المغرب وأذان العشاء قصير نسبيا من هنا تظهر أهمية هذه النوعية من المساجد والخدمة التي يمكن أن تؤديها لرواد هذه المراكز التجارية من المسلمين[٢].

---

(١) عثمان: المرجع السابق، ص١١٣.

(2) Sulaiman, A.B. & Shamsuddin, S. (1999). The role of Mosque in Urban design: A case study of Malaysia. Proceedings of the Symposium on Mosque Architecture, Vol. 3B, PP.87-101, College of Architecture & Planning, King Saud Univ., Riyadh.

لقد أوضحت بعض الدراسات الحديثة أن العلاقة بين المسجد وبيئته العمرانية لم تقتصر فقط على النواحي التخطيطية أو البصرية بل تعدت ذلك إلى النواحي الاقتصادية أيضا، ففي دراسة عن العلاقة بين مواقع المساجد وأسعار الأراضي في مدينة «الدمام» بالسعودية(١)، كشفت الدراسة عن أهمية اختيار مواقع المساجد في تحديد أسعار الأراضي كعامل أساسي يأتي في مقدمة العوامل التي تحدد هذه الأسعار، وهي نتيجة طبيعية في مجتمع مسلم يحرص معظم أفراده كل الحرص بجميع شرائح المكلفين، كباراً وصغاراً وحتى المعوقين، على إقامة العبادات والشعائر الدينية وعلى رأسها أداء الصلوات الخمس يوميا بالمسجد.

وهذه النتيجة تعطي مؤشرا قويا للمخططين ومتخذي القرار بأن يراعوا عند توزيع المساجد في المدن الإسلامية الحديثة أن تكون في متناول جميع شرائح المجتمع بحيث يغطي توزيعها كل مساحة الحي أو المنطقة السكنية، لأن عدم مراعاة التوزيع العادل للمساجد في الأحياء سيدفع بعض فئات المجتمع غير القادرة ماديا على شراء أراضٍ للسكن بالقرب من المسجد أو أن يقوموا بتخصيص أماكن غير مناسبة لأداء الصلاة تكون بالقرب من مساكنهم، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى العشوائية في إقامة هذه المساجد أو الزوايا المتناثرة، وهو ما نراه بالفعل في الكثير من المدن الإسلامية الحديثة.

إن نتائج الدراسات المتعددة للخصائص التخطيطية لمدينة الدمام بالسعودية والتي أخذت كمثال للمدن الإسلامية المعاصرة توضح التباين الحاد في توزيع المساجد على مستوى الأحياء ومساجد الجمعة ومصليات

---

(١) عبد الله بن حسين القاضي وأحمد بن الجار الله (١٩٩٩): تحليل العلاقة بين مواقع المساجد وأسعار الأراضي في مدينة إسلامية معاصرة، من سجل ندوة عمارة المساجد (المجلد الخامس): ١٤٩-١٦٠ص، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض.

العيد، ومثل هذا الخلل ظهر أيضا من دراسة مدينة «أبها» بالسعودية، ويتوقع أن يكون موجودا أيضا في معظم المدن الإسلامية المعاصرة، لذلك فقد أوصت إحدى الدراسات الحديثة[1] بأن يكون نطاق خدمات المساجد المحلية في حدود ٣٠٠ متر، ومساجد الجمعة في حدود ٦٠٠ متر، أما مصليات العيد ففي حدود ١٨٠٠ متر، من أجل ضمان التوزيع العادل للمساجد داخل المدن الإسلامية المعاصرة.

وكمثال معاصر فقد روعي وقت تخطيط العاصمة الباكستانية الجديدة «إسلام آباد» أن يتم تقسيمها إلى مناطق سكنية أو قطاعات مربعة (١٢٠٠X ١٢٠٠ميل) يحتوى كل قطاع منها على كامل الخدمات السكنية كالخدمات التجارية والمدارس الابتدائية في نطاق السير على الأقدام، وأن تشتمل هرمية المساجد وتدرجها على بناء مسجد جامع على مستوى كل منطقة بالإضافة إلى المساجد المحلية الصغيرة، ويأتي على رأس تلك الهرمية مسجد الملك فيصل على مستوى العاصمة ككل، والذي يستعمل أيضا في صلاة العيدين، كما يخدم الجامعة الإسلامية في إسلام آباد[2]، ومما لا شك فيه أن هذا التوزيع الهرمي للمساجد على مستوى العاصمة سوف يؤدي إلى عدم انعزال هذه المساجد عن بيئاتها العمرانية أو الأحياء السكنية.

---

(١) أحمد بن الجار الله وفهد بن نويصر الحريقى (1999): تحديد نطاق خدمات المساجد في مدينة إسلامية معاصرة- الدمام، المملكة العربية السعودية، من سجل ندوة عمارة المساجد (المجلد الخامس): ص٢٣٩-٢٥٤، كلية العمارة و التخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض.

(2) Khawaja, Z.U. (1999). The importance of Mosque design in the Urban enviroment of Pakistan's new Capital – Islamabad. Proceedings of the Symposium on Mosque Architecture, Vol. 3B, PP.59-69, College of Architecture & Planning, King Saud Univ., Riyadh.

ثانيا: وحدة الجوار في المجتمع الإسلامي

يمكن إرجاع فكرة وحدة الجوار (المجاورة السكنية) إلى فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة، حيث قام بتجميع كل قبيلة في خطة أو محلة سكنية وترك تقسيم الخطة للقبيلة، وفقا لظروفها وإمكانياتها في الإنشاء والتعمير.

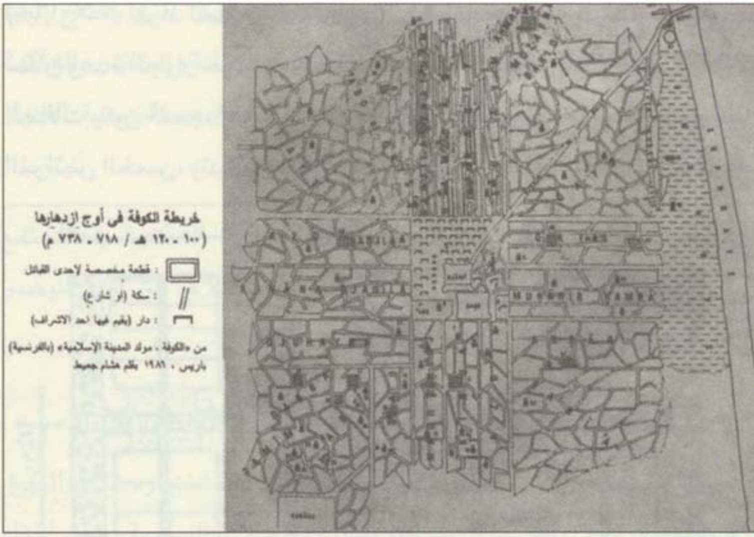
وقد سار الفاتحون الأوائل من الصحابة على النهج نفسه؛ حيث كان يتم تقسيم المدن الجديدة إلى خطط أو قطائع، ويتم تخصيص خطة لسكان قبيلة معينة، فمثلا قسمت مدينة البصرة إلى سبعة أقسام يسكنها الجند حسب قبائلهم[١]، وهذا هو ما التُزِم به من قبل عند تخطيط مدينة الكوفة، حيث خصصت منطقة لكل قبيلة (مثل أزد وتميم وكنانة..)[٢]، شكل (٦٢).

لقد أكد العلامة ابن أبي الربيع في كتابه «سلوك المالك فى تدبير الممالك على التمام والكمال»، على ثمانية شروط تجب على من أنشأ مدينة أو اتخذ مصراً، منها: «أن يميز قبائل ساكنيها، بأن لا يجمع أضداد مختلفة متباينة»[٣].

(١) عبد الرحمن زكي (-): المدينة العربية الإسلامية. مجلة الفيصل، عدد(٢٧)، السعودية، ص٩٤.

(٢) محمد علال سي ناصر (١٩٨٧). الإسلام حضارة بناء، مجلة رسالة اليونسكو، القاهرة، ص٢٠.

(٣) عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص٩٣.



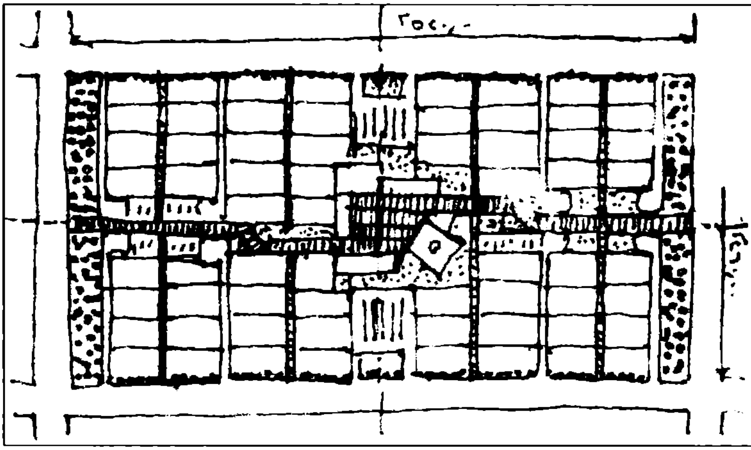
شكل (٦٢): تقسيم مدينة الكوفة إلى قطائع كل واحدة منها مخصصة لقبيلة، وهي تماثل المجاورات السكنية في عصرنا الحديث.

أما فيما يتعلق بتحديد حجم وحدة الجوار في المجتمع الإسلامي المعاصر(١)، فإنه يمكن استنباط ذلك من رواية كعب بن مالك عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله: «ألا إن أربعين داراً جاراً، ولا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه» رواه الطبراني، ويكمل هذا الحديث حديث أبي هريرة مرفوعا:«حق الجوار إلى أربعين داراً هكذا وهكذا يمينا ويسارا، وأماما وخلفا».

ويمكن أن يكون هذا الحديث مدخلا لتحديد الحيز العمراني لوحدة الجوار في المجتمع الإسلامي المعاصر، فإذا كان عدد الدور فى وحدة الجوار فى كل اتجاه أربعين داراً، فيكون عددها فى الاتجاهات الأربعة ١٦٠ داراً، في كل منها عائلة مفردة أو مركبة من أكثر من عائلة تضم الأولاد المتزوجين، أي حوالي

(١) للمزيد من التفاصيل انظر: حازم إبراهيم: وحدة الجوار في الإسلام، مجلة عالم البناء، عدد(٩١)، القاهرة.

(١٦٠ X ٥ أفراد للعائلة= ٨٠٠ فرد)، وفي حالة العائلة المركبة يصبح عدد سكان وحدة الجوار حوالي ١٦٠٠ فرد أو ٢٤٠٠ فرد على أعلى تقدير، وفي كل الحالات يكون المسجد هو المكان المركزي الذي تلتف حوله وحدة الجوار لأداء الفرائض الخمس، وتدارس شئون وحدة الجوار[١]، شكل (٦٣).



شكل (٦٣): تصور للدكتور عبد الباقي إبراهيم لأسلوب تخطيط وحدة الجوار.

كما يراعى وجود مدارس المرحلة الابتدائية (الأساسية) في منطقة متوسطة بالنسبة لوحدة الجوار، كما يجب أن يحرص المخطط على الفصل التام بين حركة المشاة وحركة السيارات داخل المجاورة السكنية، بحيث تصبح حركة السيارات على حدودها الخارجية حتى يشعر ساكنو المجاورة بالأمان النفسي وكذلك على أطفالهم أثناء ذهابهم أو إيابهم من المدرسة، أو عند لعبهم في الحدائق أو المناطق المفتوحة بوحدة الجوار[٢]، كما يراعى أيضا أن يتم تظليل ممرات المشاة التي تربط وحدة الجوار، لتجنب الإشعاع الشمسي المباشر، حيث إن أغلب دول العالم الإسلامي تقع في المنطقة الحارة.

(١) عبد الباقي إبراهيم، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٢) ارجع إلى كتابنا: التعمير في القرآن والسنة: مرجع سابق، ص ٢٠٠-٢٠٢.

ولا مانع من وجود تجمع لبعض المحلات التجارية، التى يحتاج إليها السكان في تعاملاتهم اليومية المعيشية، كمحلات البقالة والخضر والفاكهة والخبز...، ومن الممكن أن تكون قريبة من المسجد في وسط وحدة الجوار بحيث يشكلان معا قلب المجاورة السكنية.

ويبقى بعد ذلك أن نؤكد على أن روح المجاورة السكنية في المجتمع الإسلامي هو في تطبيق السلوكيات التى أمر بها الإسلام، من غض للبصر وإلقاء السلام والعلاقات الجيدة الطيبة بين الجيران.

ثالثا: فصل مصادر التلوث عن المناطق السكنية

حرص الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام عند اختياره لمكان السوق بالمدينة المنورة، أن يكون على أطراف المدينة والمحلات السكنية، حيث اختار مكانها في موقع «المناخة» حاليا وقال:«هذا سوقكم فلا يضيق ولايؤخذ فيه خراج»[1]، وهذا يعني أنه صلى الله عليه وسلم قد وضع قاعدة الفصل بين الأسواق بضجيجها ومخلفاتها عن مناطق السكن.

لذلك أولى الفقهاءُ المناطقَ السكنية الرعاية أكثر مما أولوا الصناعات، وقد استندوا فى ذلك أيضا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لا ضرر ولا ضرار»، فعلى سبيل المثال فإن الفقهاء من أتباع الإمام مالك قسموا الضرر إلى صنفين[1]: ضرر قائم وضرر مستجد، أما الضرر القائم فينقسم إلى أضرار ناتجة من أنشطة استقرت في المنطقة قبل غيرها من الإشغالات ويجمع الفقهاء على إبقائها لأحقيتها على غيرها بما أنها «ضرر دخل عليه»، وأضرار أخرى ناتجة من أنشطة بدأت بعد استقرار الجيرة المحيطة بها ومضى عليها وقت طويل قبل أن يشكو منها ساكنو المنطقة، ويحكم هذه الحالة قاعدتان: القاعدة

---

(١) انظر: محمد عبد الستار عثمان، مرجع سابق.

(٢) صالح الهذلول (١٩٨٤). التحكم في استعمالات الأراضي في المدينة العربية الإسلامية، سجل أبحاث ندوة « الإسكان في المدينة الإسلامية»،ص٢٨٥:٢٩٢، منظمة العواصم المدن الإسلامية، جدة.

الأولى وهي وقف الأنشطة في حالة الإتلاف والضرر الشديد، مثل دخان نار الحمامات وغبار الطواحين ورائحة الدباغة. أما القاعدة الثانية فتقضي بالإبقاء على النشاط إن كان ضرره ضئيلا ومن الممكن التكيف معه مثل دخان المخابز أو مطابخ البيوت.

ويوضح المثالان التاليان أسلوب تطبيق الأحكام السابقة[١]: سئل ابن القاسم (المتوفى عام ١٩١/٨٠٧م) عن أحقية جيران أحد الأفراد أن يبني حماما وفرنا وطاحونا فوق أرض فضاء أن يمنعوه إقامتها، فأفاد القاضي بحقهم في ذلك طالما أنه يسبب لهم ضررا بليغا طبقا لأحكام الإمام مالك الذي أوصى بمنع الأذى عن الجيران. كما سئل أيضا عن حداد أراد أن يبني كورا وفرنا لصهر الذهب والفضة أو يبنى طاحونا أو يحفر بئرا أو مرحاضا قرب حائط الجيران، فأفتى أن من حق جيرانه منعه لما يسببه لهم من ضرر. أما عن الأدخنة المنبعثة من المخابز والأفران بأنه لم يسمع من مالك ما يخص هذه الحالات ولكنه يعتبره ضررا بسيطا.

وقد حدد الفقهاء مسببات الضرر في ثلاثة أنواع هي[٢]: الدخان والرائحة الكريهة والأصوات المزعجة، وكان لذلك أثره المباشر في دفع نوعيات المنشآت الصناعية التي تتسبب في هذا الضرر إلى أطراف المدينة الإسلامية.

فلقد شهدت مدينة القاهرة على سبيل المثال العديد من أعمال العمران التي هدفت إلى الحفاظ على البيئة العمرانية من التلوث الناتج عن المنشآت الصناعية ونفذت أغلب هذه المشروعات في القرن ١١ الهجري/١٧م، وأهم هذه المشروعات هو مشروع نقل المدابغ من المنطقة التي كانت تقع جنوب باب زويلة خارج القاهرة حيث عمر مكانها مسجد وعمائر أخرى، بينما

---

(١) المرجع السابق.

(٢) محمد عبد الستار عثمان، مرجع سابق.

أنشئت مدابغ جديدة خارج القاهرة على الطريق الواصل بين القاهرة وبين بولاق أبوالعلا بالقرب من قنطرة «قدادار»، وهذا المكان في ذلك الوقت كان يبعد عن الكتلة العمرانية للمدينة ولا يسبب أي أضرار للبيئة ولا للمحيط العمراني للمدابغ الجديدة، على العكس من الموقع القديم الذي أصبح يقع في وسط الكتلة العمرانية للقاهرة، بينما كانت تقع خارج المدينة حينما أنشئت القاهرة في العصر الفاطمي [١].

أما الضرر الناتج عن الأصوات والذبذبات فينقسم إلى قسمين: النوع الأول وهو الذبذبات التي قد تؤثر على سلامة المباني وتعتبر خطرا يجب درؤه، فيروى ابن الرامي في كتابه «الإعلان بأحكام البنيان» أن مجموعة من الناس أقاموا بوابة لحارتهم يفتح بابها على حائط جار لهم، فقاضاهم هذا الرجل بدعوى أن فتح الباب وغلقه المستمرين قد أضر به وأقلق راحته، فتحرى ابن الرامي الأمر ووجد الحائط يتذبذب من جراء فتح الباب و غلقه، فأمر القاضي بهدم البوابة وإزالة بابها[٢].

أما النوع الآخر من الضرر فينتج عن الأصوات التي تسبب الضيق دون الضرر، وقد اختلف الفقهاء في حكمهم عليه فلم يعتبره الفقهاء الأوائل ضررا يجب درؤه، أما من لحقهم من الفقهاء فقد كان لهم رأي مغاير فاعتبروا الصوت والصدى ضوضاء ومصدرا للضرر يجب درؤه ، فقد وضع قضاة طليطلة - حسب رواية ابن الرامي - قواعد صارمة لمنع وجود الكمادين لما يسببونه من ضرر وضيق للجيران بما يصدر عنهم من أصوات، كما أعرب القاضي ابن الرافع في تونس عن تفضيله منع بناء الإسطبلات والحظائر متاخمة للمباني لما تسببه حركة الحيوانات الدائمة أثناء الليل والنهار من إزعاج قد يمنع الجيران من النوم[٣].

---

(١) خالد عزب (١٩٩٧): فقه العمارة الإسلامية، دارالنشر للجامعات، القاهرة.

(٢) صالح الهذلول، مرجع سابق.

(٣) المرجع نفسه.

لقد أَوْلتْ التشريعات والقوانين عناية كبيرة بحماية البيئة ونظافة المدن الإسلامية، ويظهر ذلك في وجود اشتراطات ومواصفات بنائية معينة يجب توافرها ببعض الحوانيت، فيشترط في حانوت القصاب (الجزار) أن يتسع لوجود مذبح حتى لا يضر بالطريق والعامة، كما أن المحتسب كان يمنعهم من الذبح على أبواب دكاكينهم حتى لا يلوثوا الطريق بالدم والروث، كما اشترط في حانوت الخباز ارتفاع السقف والتهوية اللازمة لإخراج الدخان[١].

لقد سبق الفكر الإسلامي الذى حض على الفصل بين المناطق السكنية ومناطق الأسواق والصناعات الفكر التخطيطي الحديث، حيث حرص هذا الفكر على توفير البيئة الحياتية الخالية من الملوثات بكل أنواعها، سواء أكانت صحية أم سمعية أم بصرية، وهذا يعني أن الدعوات الحديثة التى تحض على نظافة وحماية البيئة كانت مطبقة فى المدينة الإسلامية، منذ بدايات نشأتها الأولى على يد المصطفى صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام من بعده.

رابعا: الاهتمام بالطرق والفراغات العامة

اهتمت تعاليم الإسلام بالطرق، وذلك لأنها تعتبر الشرايين التي تتدفق فيها الأنشطة الإنسانية والاقتصادية، ويتضح ذلك من خلال فعل الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة، حيث ربطت الشوارع والطرقات بين المباني والتجمعات العمرانية بعضها البعض وذلك من خلال الطرق الرئيسية، وكان عرضها حوالي أربعة أمتار بينما تتراوح عرض الطرق الجانبية ما بين ٢-٣ أمتار[٢].

---

(١) للمزيد من التفاصيل انظر كتابنا: العمارة الإسلامية والبيئة ، مرجع سابق، ص ٤٧ وما بعدها.

(٢) صالح لمعي مصطفى (١٩٨١): المدينة المنورة..تطورها العمراني وتراثها المعماري، دار النهضة العربية، بيروت، ص٥٢، ٥٣.

كما دعا النبي عليه الصلاة والسلام إلى إخلاء الطرق من كل ما يعترض المارة ويعرقل سيرهم أو يعرضهم لأي قدر من الأذى مهما تضاءل، ففي سنن أبي داود عن ابن عمر أنه قال[١]: «مطرنا ذات ليلة فأصبحت الأرض مبتلة، فجعل الرجل يأتي بالحصى في ثوبه فيبسط تحته، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته قال: ما أحسن هذا»، كما أخرج مسلم من حديث أبي برزة قال[٢]: «قلت: يا نبي الله، علمني شيئا انتفع به، قال: اعزل الأذى عن طريق المسلمين».

كما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الجور على الطريق عند إقامة المنازل حتى لا تضيق الطرق فتحول دون انسياب حركة السير فيها فتفتر أنشطة الناس، فقد أخرج أبو داود عن سهيل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه قال[٣]: «غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة كذا وكذا فضيق الناس المنازل وقطعوا الطريق، فبعث نبي الله صلى الله عليه وسلم مناديا ينادى في الناس من ضيَّق منزلا أو قطع طريقا فلا جهاد له»، وجاء في شرح سنن أبي داود[٤]: «أنه لا يجوز تضييق الطريق التي تسير الناس فيها، أما نفي الجهاد عمن فعل ذلك فمن باب المبالغة في الزجر والتنفير».

وقد كان لتوجيهات الرسول عليه الصلاة والسلام الأثر الكبير في نظافة المدينة المنورة، فتم تحديد مواضع لقضاء الحاجة تسمى «المناصع»، إضافة إلى بيوت الخلاء الملحقة بالمنازل[٥]، كما أنه دعا إلى إماطة الأذى عن الطريق باعتبار أن ذلك شعبة من شعب الإيمان.

---

(١) انظر سنن أبي داود ، كتاب الصلاة.

(٢) انظر صحيح مسلم ، كتاب البر و الصلة والآداب.

(٣) انظر سنن أبي داود ، كتاب الجهاد.

(٤) انظر سنن الترمذي ، كتاب «الأحكام».

(٥) الفحام، إبراهيم محمدْ (١٩٨٤): العناية بتنظيم استخدام الطرق و تأمينها في الإسلام، مجلة «الضياء»- عدد (١٧٠).

وقد شجع الرسول صلى الله عليه وسلم على عمارة الأرض بطرق شتى من أهمها ما يعرف شرعا «بمبدأ إحياء الأرض الموات» كما أوضحته بعض أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام، ومنها: «من أحيا أرضا ميتة فهي له»[1]، وقوله: «من عمر أرضا ليست لأحد فهو أحق بها»[2]، وبذلك يكون الإحياء سببا للملكية لا أن تكون الملكية قاصرة فقط على القادرين على الشراء واحتجاز الأراضي والاتجار فيها بدون تعمير أو استغلال، علما بأن الشرع ينص على أن هذه الأرض إذا لم تعمر يسقط الحق فيها بعد ثلاث سنوات.

ولقد سار الصحابة والمسلمون الأوائل على نفس نهج النبي عليه الصلاة والسلام في عمارة الأرض والبيئة، واستلهموا من أقواله وأفعاله المبادئ والأسس العامة في هذا المجال، فلقد وضع عمر بن الخطاب دستورا لإنشاء المدن أذاعه على فاتحي الأمصار ومنشئيها في صدر الإسلام، فجعل المسجد محور المدينة أو مركزها بحيث تتفرع الشوارع الرئيسية منه، وأن يكون النهج العام (الطريق العام) أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين، والحارات عشرين ذراعا، والأزقة سبع أذرع، وأن تكون الشوارع في القطائع ستينًا[3]، شكل (٦٤).

وكما حرص الإسلام على حماية المارة في الطرق من ضروب الأذى المادي، فقد حرص أيضا على حمايتهم من عوامل الأذى المعنوي خشية أن يسيء ذلك لمشاعرهم وبخاصة النساء، فقد أخرج البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[4]: «إياكم والجلوس على

(١) انظر صحيح البخاري ، كتاب الوضوء.

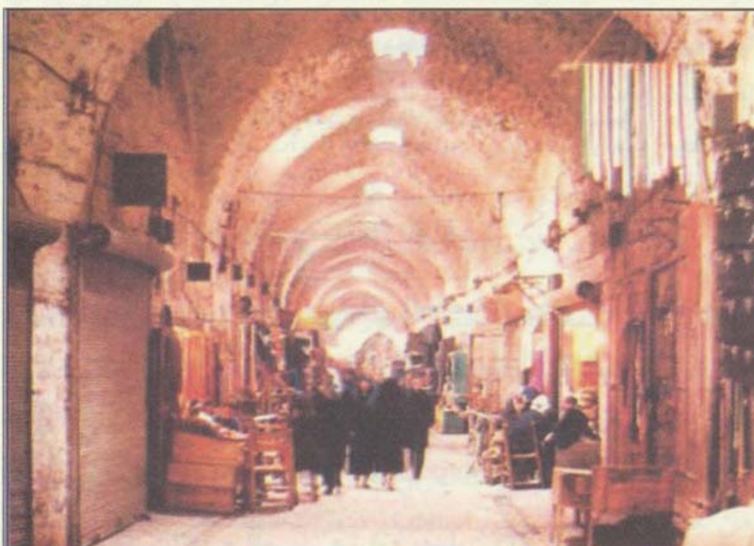
(٢) انظر مسند الإمام أحمد ، كتاب «مسند الأنصار».

(٣) محمد السيد الوكيل (١٩٨٢): عناية الإسلام بتخطيط المدن وعمارتها، دار الأنصار، القاهرة، ص١٢٥.

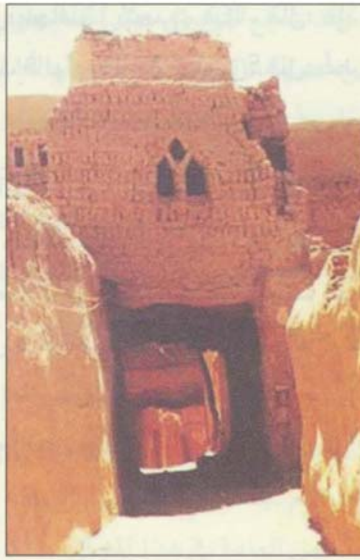
(٤) انظر صحيح البخاري ، كتاب «المظالم والغصب».

الطرقات، فقالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام،وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر».

لذلك يجب أن يُراعى عند تصميم الفراغات المفتوحة أو ممرات المشاة داخل المناطق السكنية، أن تصمم بأسلوب يحافظ على حق الطريق بحيث لا تطل عليها مقاعد الجلوس مباشرة، ويدخل في ذلك أيضا عدم إطلال المطاعم والمقاهي وما شابه على هذه الفراغات والممرات، ولكن يتم تصميمها على حدائق أو أفنية داخلية تطل عليها لا على الطرقات، حتى لا يصبح الرائح والغادي هدفاً لأنظار الجالسين بها.



سوق حلب المغطاة: نموذج للشارع التجاري في المدينة الإسلامية القديمة.





نموذجان للشوارع المسقوفة والضيقة بالمدن الإسلامية التقليدية.

شكل (٦٤): نماذج لشوارع وطرقات بالمدن الإسلامية القديمة.

خامسا: توفير الحدائق وتنسيق المواقع

إن وجود الحدائق بالمساكن والمباني الخاصة أو وجود المناطق الخضراء بالمدن اتجاه حضاري وجمالي نبه عليه القرآن الكريم في العديد من آياته، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[1].

من هذا المنطلق يجب ألا يتم النظر إلى محاولات إيجاد الحدائق على أنها رفاهية بل هي إحدى نعم الله على البشر، ويتأكد ذلك من قوله

(١) سورة النمل: الآية ٦٠.

سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1]، ومن هنا تتأكد الدعوة الصريحة إلى إيجاد الحدائق التي تدخل تحت كلمتي الزينة والطيبات اللتين وردتا في الآية الكريمة السابقة.

إن الشوارع المزروعة بالأشجار المظللة تجمل منظر المدينة مع جمال أزهارها وروائحها الطيبة، إلى جانب أهمية الفوائد الاجتماعية للمسطحات الخضراء والمناطق المفتوحة، حيث تعمل على إيجاد التقارب بين الناس والتقائهم مع بعضهم.

ومما لا شك فيه أن للمسطحات الخضراء فوائد صحية وبيولوجية لها أثر طيب على صحة الإنسان، لذا فقد سميت المناطق الخضراء «بالخضرة الصحية»، وهذا يرجع إلى العملية البيولوجية التي يقوم بها النبات والناتجة عن عملية التمثيل الضوئي، حيث يحتاج النبات في هذه العملية إلى ثاني أكسيد الكربون الناتج من مخلفات الإنسان والحيوان، وينتج الأكسجين النقي اللازم لتنفس الإنسان والكائنات الحية الأخرى.

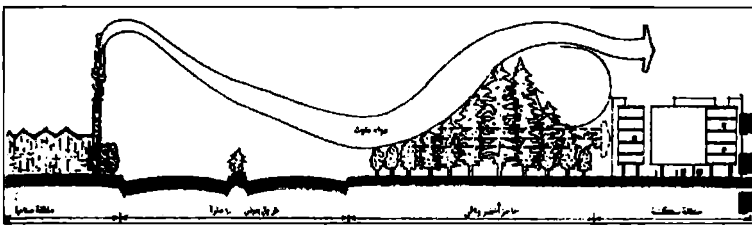
وللتشجير والمسطحات الخضراء دور مهم في المناطق الصناعية المتاخمة للمناطق السكنية، حيث يتم فصل المناطق الصناعية عن باقي جسم المدينة وترك حَرَم للمناطق السكنية، مع وضع مسطحات خضراء كأحزمة واقية وفاصلة، شكل (٦٥)، ويتم تحديد المسافات المتروكة حسب نوع الصناعة[2]، ومن جانب آخر فإنه يمكن استخدام نوعيات معينة من النباتات كمؤشر على مدى صحة البيئة ومعرفة مدى تلوث الهواء والماء بالمدن.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٣٢.

(٢) انظر يحيى وزيرى (٢٠٠٣): التصميم المعماري الصديق للبيئة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص١٨٥.

وللنباتات فاعلية كبيرة في تقليل الضوضاء، ويتوقف ذلك على عدة عوامل منها ما يتعلق بالنباتات من حيث النوع والارتفاع والكثافة ومكان زراعتها، وقد وجد أن المنطقة المزروعة على جانبي الشوارع تعمل على امتصاص وتشتيت الضوضاء، فزراعة سياج نباتي بسمك ٥ أقدام (حوالي ١,٥٠م) يكون فعالا في تقليل الضوضاء بمعدل ٢ ديسيبل[١].



شكل (٦٥): استخدام الأحزمة الخضراء الواقية من الملوثات ودخان المناطق الصناعية.

وللمناطق الخضراء والنباتات أيضا تأثير مباشر في الحماية من عوامل المناخ وتلطيف الجو خاصة في المناطق الحارة، حيث لها قدرة على امتصاص الحرارة وعدم إشعاعها مرة أخرى، كما أوضحت بعض الدراسات أن متوسط الانخفاض في درجة حرارة الحوائط المظللة بالأشجار والشجيرات خلال أيام الصيف الحارة يتراوح ما بين ١٣,٥٠ و ١٥,٥٠ درجة مئوية، أما المظللة بالنباتات المتسلقة فيتراوح مستوى انخفاض درجة حرارتها ما بين ١٠ و ١٢ درجة مئوية[٢]،[٣].

---

(١) محمود الأكيابي (١٩٩١): القيم الوظيفية والجمالية للنباتات في الفراغات العمرانية، مجلة عالم البناء، عدد (١٢٤): ص٢١-٢٥، القاهرة.

(2) Parker, J.H. (1983). The effectiveness of vegetation on residential cooling. Passive Solar Journal, pp. 123-132.

(3) (1987): The use of shrubs in energy conservation planting. Landscape Journal, Vol. 6, pp. 123-139.

كما أن للأشجار والنباتات تأثيراً مضاداً في تقليل سرعة التيارات الهوائية غير المرغوب فيها، وكذلك العواصف الترابية، حيث تستعمل كمصدات للرياح وبتشكيلات خاصة وبنوعيات خاصة (أشجار سريعة النمو، عميقة الجذور، رفيعة الأوراق، مستديمة الخضرة) توزع في صفوف متقاربة في الجهات المعرضة لتيارات الرياح الشديدة، كما تساعد المناطق الخضراء على تخفيف حدة الجفاف بالمناطق الجافة والصحراوية بزيادة الرطوبة النسبية، وذلك بتبخر بعض المياه الناتجة من عمليات الري وعملية البخر (النتح) التي تقوم بها النباتات الخضراء[١].

لقد حرص بعض مخططي المدن على وجود الحدائق في تخطيطات المجاورة السكنية، حيث استعملت كفراغ اجتماعي وكمكان للالتقاء في الوقت ذاته، كما حرصت العديد من العواصم الإسلامية على وجود الحدائق والمسطحات الخضراء في مخططاتها، ونذكر هنا على سبيل المثال الرياض في السعودية، ومسقط وصحار في سلطنة عمان[٢]، والقاهرة في مصر، شكل (٦٦).

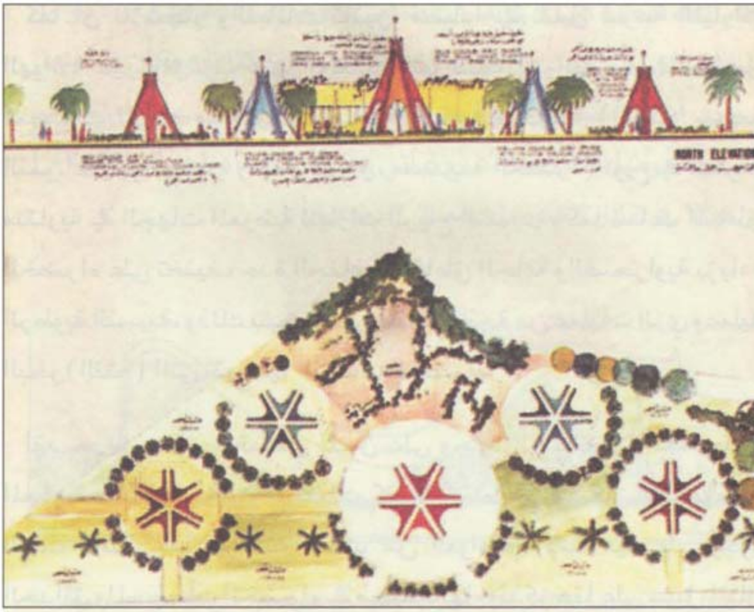
---

(١) الزعفراني، محمد عباس (١٩٧٧): المناطق الخضراء و المفتوحة وتأثيرها على تخطيط المدن، مجلة جمعية المهندسين المصرية، المجلد السادس عشر-عدد(4):ص23-29، القاهرة.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر:

- التشجير في مسقط (١٩٩٤): بلدية مسقط، سلطنة عمان.

- التجميل في صحار (١٩٩٧): بلدية مسقط، سلطنة عمان.



شكل (٦٦): تصميم حديقة السليمانية بالرياض مستوحى من الخيام العربية.

الخاتمة

اتضح لنا من كل ما سبق المفهوم الصحيح للعمران والبنيان في الرؤية الإسلامية، الذي يأخذ تعاليم الإسلام المتمثلة أساسا في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في اعتباره، كما اتضح أيضا من هذه الدراسة القرآنية أحد جوانب إعجاز وعظمة القرآن الكريم بما يقدم من منهج ورؤية واضحة ومتكاملة لأسس وضوابط عمارة الأرض والمجتمعات الإنسانية، من أجل سعادة البشرية في كل زمان ومكان.

وإذا كان الإسلام ديناً جامعاً وشاملاً ومنهج حياة، يحدد أسس العلاقة بين العبد وربه وبين الإنسان وأخيه الإنسان، فإنه لم يترك أيضا صغيرة ولا كبيرة في حياة المسلم إلا وقد وضع لها الإطار الأمثل الواجب الاتباع، فهو لم يغفل بالتالي نظام معيشة وسكن المسلم سواء كان يعيش في قرية صغيرة أو مدينة كبيرة، وهو ما اتضح بلا شك من فصول هذه الدراسة.

فعلى عكس ما يعتقد البعض حتى من المسلمين، فإن القرآن الكريم لا تتحدث آياته عن الأحكام الشرعية والدينية فقط، بل أشارت ووضعت الضوابط والسنن الواضحة للعمران والبنيان، ولكن هذه الضوابط تحتاج لمن يستطيع استنباطها من بعض الآيات القرآنية المتفرقة في سوره، وربما تكون الحكمة الإلهية قد اقتضت ذلك من أجل دفع المسلمين لتدبر آيات القرآن الكريم، في محاولة لاستخلاص ما تحتوى عليه من قواعد وضوابط ترسي الممارسات الإعمارية الصالحة وتحذر من الممارسات الفاسدة.

وإذا كان القصص القرآني قد أوضح أن تقوى الله هي الحافظ الأساسي للعمران والبنيان، فقد أوضح أيضا أن الظلم والكفر بالله ورسله هو السبب الأساسي لخراب ودمار العمران. لقد نبه القصص القرآني إلى الغاية من إقامة القرى والمدائن والتجمعات العمرانية، إنها الغاية نفسها التي خلق الله سبحانه وتعالى من أجلها الإنس والجن ألا وهي عبادته، مصداقا لقوله سبحانه وتعالى:« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»، إن العمران

والبنيان أحد الوسائل التي تعين الإنسان على عبادة الله الواحد الأحد، مثلها في ذلك مثل العديد من النعم الأخرى التي أنعم بها الله سبحانه وتعالى على البشر كالطعام والشراب والملبس وغيرها من النعم التي لا تعد ولا تحصى.

لقد أشار القرآن الكريم إلى بعض الثوابت الواجب توافرها في العمران والبنيان مثل: أهمية توجيه العمران الإسلامي إلى القبلة، كما أشار في مواضع أخرى إلى بعض المتغيرات كأخذ العوامل البيئية في الاعتبار عند تصميم المدن والمباني، وهذه العوامل تختلف بلا شك في البلاد الحارة عنها في البلاد الباردة.

ولم تقتصر ضوابط العمران من وجهة النظر الإسلامية على القواعد والخطوط العامة فقط، بل تعدتها إلى وضع رؤية تكاد تكون تفصيلية لنظام البنيان الإسلامي أوضحنا منها ما يختص بعمارة المساجد ومسكن المسلم المعاصر، لأهمية هذين النوعين من المباني في المجتمع المسلم، ومن جانب آخر لإعطاء فكرة أوضح عن كيفية تأثير المنهج الإسلامي (القرآن، السنة، الآراء الفقهية) على شكل ونظام العمران والبنيان في المجتمعات الإسلامية.

وبناء على ذلك يمكن القول إن نظام العمران والبنيان في الإسلام لا يقف عند المظهر المادي للبناء، بل يبحث عن الغاية التي من أجلها يقوم الإنسان بإعمار الأرض، فالمفهوم الصحيح للعمران الإسلامي يتجلى في كل مايقيمه المسلمون- في أي زمان ومكان- وفق تعاليم الإسلام التي وردت أساسا في الآيات القرآنية وفي الأحاديث النبوية، من أجل تنفيذ مشيئة الله لعمارة الأرض عمارة صالحة فاضلة، ومن أجل استمرار الحياة الإنسانية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وكل ذلك من خلال العلوم المعمارية والبيئية والإنشائية المتعارف عليها، وعلى أرقى ما وصل إليه كل عصر من

علوم ومعارف.

ومن المفهوم السابق للعمران الإسلامي يمكن أن نخرج ببعض الأسس والحقائق التالية:

أولا: إن ارتباط الإسلام بفن العمارة والعمران حقيقة واقعية لا شك فيها، وأن هذا الارتباط ارتباط جوهري، بمعنى أن كل مبنى في المجتمع الإسلامي يجب أن يطبق في عمارته قيم الإسلام وتعاليمه بقدر المستطاع، بحيث تهيئ هذه المباني البيئة الإسلامية الصالحة لمعيشة المسلم والتي تعينه على عبادة الله وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه.

ثانيا: أنه إذا اتفقنا على أنه توجد اختلافات من مجتمع مسلم إلى آخر، تظهر في العوامل المناخية والبيئية أو المستوى الاقتصادي أو التركيب الاجتماعي، أو مواد البناء وأساليب الإنشاء، فإن هذه الاختلافات ستؤدي إلى ظهور اختلافات في الشكل والمظهر الخارجي للمباني والعمران، ولكن يجب ألا تتعدى هذه الاختلافات الشكلية إلى جوهر الفكر والضوابط التصميمية ، حيث إن هذه الضوابط تنهل من منبع واحد ألا وهو تعاليم الإسلام.

ثالثا: إن عمارة المجتمع المسلم ما هي إلا مظهر مادي يعكس أخلاقيات وإرشادات الدين الإسلامي الحنيف، من هنا يجب أن نعترف بأنه لا يمكن تطبيق ضوابط العمران والبنيان الإسلامية إلا في حالة وجود المجتمع المسلم نفسه، الذي يحرص على تطبيق شرع الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام في جميع مناحي الحياة ككل، لذلك فإن الدعوة إلى تأصيل القيم والضوابط الإسلامية في العمران والبنيان دعوة لا تنفصل عن الدعوة الأساسية إلى عودة المجتمع المسلم إلى تطبيق شريعة السماء السمحاء.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: المراجع باللغة العربية:

(١) القرآن الكريم.

أولا: المراجع والكتب العربية:

(٢) إبراهيم جمعة (١٩٦٩). دراسة فى تطور الكتابات الكوفية. دار الفكر العربي، القاهرة.

(٣) إبراهيم محمد الفحام (١٩٨٤). العناية بتنظيم استخدام الطرق وتأمينها في الإسلام، مجلة «الضياء» - عدد (١٧٠).

(٤) أبو صالح الألفي (بدون تاريخ). الفن الإسلامي.. أصوله فلسفته مدارسه (ط٣)، دار المعارف، القاهرة.

(٥) أحمد بن الجار الله وعبد الله بن حسين القاضي (١٩٩٩). تحليل العلاقة بين مواقع المساجد وأسعار الأراضي في مدينة إسلامية معاصرة، من سجل ندوة عمارة المساجد (المجلد الخامس)، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض.

(٦) أحمد بن الجار الله وفهد بن نويصر الحريقى (١٩٩٩). تحديد نطاق خدمات المساجد في مدينة إسلامية معاصرة- الدمام، المملكة العربية السعودية، من سجل ندوة عمارة المساجد (المجلد الخامس)، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض.

(٧) أحمد سعد (٢٠٠٣). ضوابط بناء المساكن في الفقه الإسلامي. مؤتمر الاجتهاد في قضايا الصحة والبيئة والعمران، جامعة اليرموك- أربد، الأردن.

(٨) الإمام ابن حجر العسقلاني، «فتح الباري شرح صحيح البخاري».

(٩) الإمام ابن قيم الجوزية (بدون تاريخ). حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، دار عمر بن الخطاب للتوزيع والنشر، القاهرة.

(١٠) الإمام ابن كثير (١٩٨٢). قصص الأنبياء. دار الحديث، القاهرة.

(١١) الإمام ابن كثير، تفسير القرآن العظيم.

(١٢)الإمام البخاري (١٩٧٩). الأدب المفرد، مكتبة الآداب ومطبعتها، القاهرة.
(١٣)الإمام الشوكانى ، «فتح القدير».
(١٤)الإمام الرازي (١٩٩٠). التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) دار الكتب العلمية، بيروت.
(١٥)الإمام القرطبي: الجامع لأحكام القرآن.
(١٦)الإمام مالك، الموطأ.
(١٧)البخلاخى أمحند (١٩٩٤). فاس ومراكش.. مدن لها تاريخ، مجلة المنهل- عدد ٥١٩، جدة.
(١٨)التجميل فى صحار (١٩٩٧). بلدية مسقط، سلطنة عمان.
(١٩)التشجير فى مسقط (١٩٩٤). بلدية مسقط، سلطنة عمان.
(٢٠)الجماليات والجماليات العربية (١٩٨٦). مجلة الوحدة- العدد (٢٤)، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، المملكة المغربية.
(٢١)الفقه على المذاهب الأربعة (١٩٨٦)، قسم العبادات- مبحث استقبال القبلة، رسالة الإمام – عدد (١١)، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.
(٢٢) الفيروزآبادي (١٩٧٧). القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
(٢٣)المساجد في المدن العربية (١٩٩٠). المعهد العربي لإنماء المدن، السعودية.
(٢٤)المعجم الوجيز (٢٠٠٠). طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، مجمع اللغة العربية جمهورية مصر العربية.
(٢٥)أميرة حلمي مطر. مقدمة فى علم الجمال، دار النهضة العربية، القاهرة.
(٢٦)بركات محمد مراد (٢٠٠٥). الفنان المسلم والإبداع، مجلة المسلم

المعاصر، تصدر عن جمعية المسلم المعاصر، القاهرة.
(٢٧)توفيق محمد سبع (١٩٨٤). قيم حضارية في القرآن الكريم، القاهرة.
(٢٨) ثيا وريتشارد برجيز (ترجمة: محمد توفيق محمود) (١٩٦٢). من الحجارة إلى ناطحات السحاب، دار النهضة العربية، القاهرة.
(٢٩)جريدة اللواء الإسلامي، عدد ٩٦، سنة ١٩٨٣، القاهرة.
(٣٠)حازم إبراهيم. وحدة الجوار في الإسلام. مجلة عالم البناء، عدد(٩١)، القاهرة.
(٣١)حسان داود (٢٠٠٤). سليمان بتعليم بلقيس الاستدلال يعلمنا، مجلة منار الإسلام- عدد ٣٥٢، وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف، دولة الإمارات العربية المتحدة.
(٣٢)حسين مؤنس (١٩٨١). المساجد. سلسلة عالم المعرفة- عدد (٣٧)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
(٣٣)خالد عزب (١٩٩٧). فقه العمارة الإسلامية، دارالنشر للجامعات، القاهرة.
(٣٤)خالد عزب (١٩٩٧). تخطيط وعمارة المدن الإسلامية. كتاب الأمة، عدد (٥٨)- السنة السابعة عشر، وزارة الأوقاف، قطر.
(٣٥)خير الدين وانلي (١٩٨٠): المسجد في الإسلام، دمشق.
(٣٦)دافيد مالين رودمان ونيكولاى لينسن (ترجمة: شويكار ذكى). (١٩٩٧)، ثورة في عالم البناء. الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة.
(٣٧)دونالد هيل (ترجمة: أحمد فؤاد باشا) (٢٠٠٤). العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية. سلسلة عالم المعرفة- عدد(٣٠٥)، المجلس الوطني للثقافة والعلوم والآداب، الكويت.
(٣٨)زغلول النجار. (١٩٩٢). اكتشاف مدينة إرم ذات العماد التي تحدث عنها القرآن الكريم منذ ١٤ قرنا، جريدة الأهرام المصرية (١٠/٤/١٩٩٢)،

القاهرة.
(٣٩) زغلول النجار (٢٠٠٢). من أسرار القرآن، جريدة الأهرام المصرية (٢٠٠٢/١٠/٧)، القاهرة.
(٤٠) زغلول النجار (٢٠٠٣). من أسرار القرآن، جريدة الأهرام (٢٠٠٣/٩/١)، القاهرة.
(٤١)سعاد ماهر (بدون تاريخ). الفنون الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، دائرة الثقافة والإعلام بحكومة الشارقة، الشارقة.
(٤٢) سعد بن سعيد الثقفان (١٩٩٩). المسجد في المدينة السعودية بين الواقع والمأمول من سجل ندوة «عمارة المساجد» (المجلد العاشر)، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض.
(٤٣)شفق العوضي الوكيل ومحمد عبدالله سراج (١٩٨٥). المناخ وعمارة المناطق الحارة. القاهرة.
(٤٤)صادق أحمد صادق (١٩٩٩). التشكيل الفراغي وتأثيره على علاقة المسجد بالبيئة العمرانية. من سجل ندوة عمارة المساجد، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض.
(٤٥)صالح الهذلول (١٩٨٤). التحكم في استعمالات الأراضي في المدينة العربية الإسلامية، سجل أبحاث ندوة «الإسكان في المدينة الإسلامية»، منظمة العواصم والمدن الإسلامية، جدة.
(٤٦)صالح لمعي مصطفى (١٩٨١). المدينة المنورة..تطورها العمراني وتراثها المعماري، دار النهضة العربية، بيروت.
(٤٧) صحيح مسلم ، للإمام مسلم.
(٤٨)طارق الشيخ (٢٠٠٤). حصون اليهود وجدرهم على مر العصور، جريدة الأهرام (٢٠٠٤/٧/١٧)، القاهرة.
(٤٩) عبد الباقي إبراهيم (٢٠٠٠). مشوار البحث عن أصول العمارة في الإسلام، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، القاهرة.

(٥٠)عبد الجليل أبو ضمرة (٢٠٠٣). فقه الإعمار وضوابطه في الفقه الإسلامي، مؤتمر الاجتهاد في قضايا الصحة والبيئة والعمران، جامعة اليرموك -أربد، الأردن.

(٥١)عبد الحق بشير العقبى وإبراهيم محمد الخطيرى (١٩٩٢). استنباط المنهج الإسلامي لتصميم المسجد، سجل الحلقة الدراسية الرابعة لمنظمة المدن الإسلامية، المغرب ١٩٩١، منظمة العواصم والمدن الإسلامية، جدة.

(٥٢) عبد الرحمن سلطان (١٩٨٨). النسب الرياضية في العمارة الإسلامية. مجلة عالم البناء- عدد (٩٦)، جمعية إحياء التراث التخطيطي والمعماري، القاهرة.

(٥٣)عبد الرحمن زكى (-). المدينة العربية الإسلامية، مجلة الفيصل، عدد(٢٧)، السعودية.

(٥٤)عبد الرحيم غالب (١٩٨٨). موسوعة العمارة الإسلامية. جروس برس، بيروت.

(٥٥)عبد العزيز عبد الله أبا الخيل (١٩٨٩). الكتاب والسنة أساس تأويل العمارة الإسلامية، شركة مطابع نجد التجارية، الرياض.

(٥٦) عبد المجيد وافى (١٩٧٤). القبلة والمحراب، مجلة منبر الإسلام- عدد (٢)، القاهرة.

(٥٧)عفيف البهنسي (١٩٧٩). جمالية الفن العربي، سلسلة عالم المعرفة- العدد (١٤)، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

(٥٨)عفيف البهنسي (١٩٨٤). الخط العربي.. أصوله، نهضته، انتشاره. دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق.

(٥٩)علي علي آل موسى (١٤٢٧هجرية). الجمال في القرآن الكريم.. قراءة وصفية، مجلة القرآن نور- السنة الرابعة، العدد الخامس، تصدر عن مؤسسة القرآن نور، لبنان.

(٦٠)غازى الخالدي (١٤١٩هجرية). علم الجمال: نظرية وتطبيق في

الموسيقا والمسرح والفنون التشكيلية. وزارة الثقافة، دمشق.
(٦١)فؤاد عمر توفيق (١٩٨٦). أوضاع تخطيط الإسكان على سفوح الجبال بمدينة مكة المكرمة،كتاب أبحاث ندوة «الإسكان في المدينة الإسلامية» بأنقرة، منظمة العواصم والمدن الإسلامية، جدة
(٦٢)فهد بن نويصر الحريقى (١٩٩٩). دور المسجد في تشكيل النسيج العمراني وتأكيد هوية المدينة الإسلامية المعاصرة، من سجل ندوة «عمارة المساجد» (المجلد العاشر)، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض.
(٦٣)محمد أحمد سليمان (١٩٩٩). سباحة فضائية في آفاق علم الفلك، مكتبة العجيري، الكويت.
(٦٤) محمد السيد الوكيل (١٩٨٢). عناية الإسلام بتخطيط المدن وعمارتها، دار الأنصار، القاهرة.
(٦٥)محمد بن عبد الله الزركشي (١٩٩٩). إعلام الساجد بأحكام المساجد. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.
(٦٦)محمد جمال الدين القاسمى.إصلاح المساجد من البدع والعوائد، المكتب الإسلامي، بيروت.
(٦٧)محمد عبد الستار عثمان(١٩٨٨). المدينة الإسلامية، (سلسلة عالم المعرفة)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
(٦٨)محمد عبد الستار عثمان ومحمد عبد السميع عيد (١٩٩٩). دراسة لإمكانية استخدام المسطحات الخضراء في التشكيل العمراني للمساجد، سجل أبحاث ندوة عمارة المساجد (ج٢)، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض.
(٦٩)محمد عبد الهادى أبو ريدة (١٩٩٢). قاموس القرآن الكريم.. مضمون القرآن الكريم، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت.
(٧٠)محمد عباس الزعفراني (١٩٧٧). المناطق الخضراء والمفتوحة

وتأثيرها على تخطيط المدن. مجلة جمعية المهندسين المصرية، المجلد السادس عشر-عدد(٤): القاهرة.

(٧١)محمد عمارة (٢٠٠٥). الإسلام والفنون الجميلة، دار الشروق، القاهرة.

(٧٢) محمد علال سي ناصر (١٩٨٧). الإسلام حضارة بناء، مجلة رسالة اليونسكو، القاهرة.

(٧٣)محمد على الصابوني، صفوة التفاسير.

(٧٤)محمود حسن نوفل (٢٠٠٣). العمران والبيئة من منظور إسلامي، أبحاث مؤتمر الاجتهاد في قضايا الصحة والبيئة والعمران، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية- جامعة اليرموك، الأردن.

(٧٥)مشارى عبد الله النعيم (٢٠٠١). من المربع إلى العذيبات..رؤى وأفكار في العمارة السعودية، كتاب الرياض- عدد٩٤، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض.

(٧٦)محمود الأكيابي (١٩٩١). القيم الوظيفية والجمالية للنباتات في الفراغات العمرانية، مجلة عالم البناء، عدد(١٢٤)، القاهرة.

(٧٧)مقدمة ابن خلدون (بدون تاريخ). مؤسسة دار الشعب، القاهرة.

(٧٨)نخبة من العلماء (١٤١٠ هجرية). التفسير الميسر، وزارة الأوقاف السعودية، السعودية.

(٧٩)هشام أبو سعدة (٢٠٠٣). مهنة عمارة البيئة، النشرة العلمية لبحوث العمران، عدد(٣)، كلية التخطيط الإقليمي والعمراني، جامعة القاهرة.

(٨٠)ولفرد جوزيف دللى (ترجمة: محمود أحمد) (٢٠٠٦). العمارة العربية بمصر في شرح المميزات البنائية الرئيسية للطراز العربى، مكتبة الأسرة (سلسلة الفنون)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

(٨١)يحيى وزيري (١٩٨٥). العمارة الإسلامية الحربية وتأثيرها على العمارة المعاصرة، مجلة عالم البناء- عدد ٦٢، مركز الدراسات التخطيطية

والمعمارية، القاهرة.
(٨٢) يحيى وزيري (١٩٩٠). خواطر الشيخ الشعراوي حول عمران المجتمع الإسلامي، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.
(٨٣) يحيى وزيري (١٩٩٢). التعمير في القرآن والسنة، القاهرة.
(٨٤) يحيى وزيري (١٩٩٢). تأثير المنهج الإسلامي على العمارة الداخلية والخارجية للمسكن، كتاب أبحاث الحلقة الدراسية الرابعة لمنظمة العواصم والمدن الإسلامية- الرباط، المغرب (١٩٩١). منظمة العواصم والمدن الإسلامية، جدة،
(٨٥) يحيى وزيري (١٩٩٩). تأثير المنهج الإسلامي على عمارة المساجد، كتاب الندوة العالمية للمساجد، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض.
(٨٦) يحيى وزيري (٢٠٠٠). موسوعة عناصر العمارة الإسلامية (الكتاب الرابع)، مكتبة مدبولى، القاهرة.
(٨٧) يحيى وزيري (٢٠٠٢). المجتمع وثقافة العمران، مؤسسة دار الشعب، القاهرة.
(٨٨) يحيى وزيري (٢٠٠٣). التصميم المعماري الصديق للبيئة، مكتبة مدبولى، القاهرة.
(٨٩) يحيى وزيري (٢٠٠٣). التصميم البيئي للمساجد في ضوء الضوابط الشرعية، من أبحاث مؤتمر الاجتهاد في قضايا البيئة والصحة والعمران، جامعة اليرموك- أربد، الأردن.
(٩٠)يحيى وزيري (٢٠٠٤). العمارة الإسلامية والبيئة، سلسلة عالم المعرفة- عدد ٣٠٤، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
(٩١)يحيى وزيري (٢٠٠٤). دلائل الإعجاز العلمي في إشارات التصميم البيئي في القرآن الكريم،كتاب أبحاث المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة بدبي، المجلد الثالث، الهيئة العالمية للإعجاز

العلمي في القرآن والسنة، مكة المكرمة.
(٩٢)يحيى وزيري (٢٠٠٥). أم القرى خصوصية المكان والعمران، كتيب المجلة العربية، رقم (١٠٢)، الرياض.
(٩٣) يحيى وزيري (٢٠٠٦). سقف من فضة.. لماذا الفضة؟، مجلة الإعجاز العلمي، عدد أكتوبر ٢٠٠٦م، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مكة المكرمة.

ثانيا: المراجع باللغة الأجنبية:

(94) Goulding, J.R. (1986). Energy in Architecture. Commission of the European communities, Dublin

(95) Issam El-Said and Ayes Parman (1977). Geometric Concepts in Islamic Art. World of Islam Festival Publishing Company Ltd, London.

(96) Khawaja, Z.U. (1999). The importance of Mosque design in the Urban enviroment of Pakistan's new Capital - Islamabad. Proceedings of the Symposium on Mosque Architecture, Vol. 3B, PP.5969-, College of Architecture & Planning, King Saud Univ., Riyadh

(97) Parker, J.H. (1983). The effectiveness of vegetation on residential cooling. Passive Solar Journal, pp. 123132-.

(98) Sulaiman, A.B. & Shamsuddin, S. (1999). The role of Mosque in Urban design: A case study of Malaysia. Proceedings of the Symposium on Mosque Architecture, Vol. 3B, PP.87101-, College of Architecture & Planning, King Saud

Univ., Riyadh.

(99) Taj, H.M. (1999). The influence of Qibla on street line orientation in Islamic Cities. Proceedings of the symposium on Mosque Architecture, Vol.3B, pp. 137181-, College of Architecture & Planning, King Saud Univ., Riyadh.

(100) Watson , D. (1983). Climatic design. McGraw- Hill Book Company, New York

(101) Yehia Wazeri (2001). The natural cooling system...an approach for improving the thermal performance of buildings in North Africa (Ph.D.). Institute of African Research and Studies, Cairo University, pp. 9597-.

(102) Zayn al-Din, N. (1968). Musawar al-Khatt al-Arabi (Arabic Calligraphy), Bagjdad,pp.96.

(103)------- (1987). The use of shrubs in energy conservation planting. Landscape Journal, Vol. 6, pp. 123139-.

نهر متعدد.. متجدد

هذا الكتاب

لقد ناقشت العديد من الكتب والدراسات موضوع العمارة الإسلامية بأسلوب يدخل في نطاق تاريخ العمارة أو الدراسات الأثرية، وهذا شيء مطلوب، ولكن خصائص التفكير في جوانب العمارة والعمران من منظور إسلامي معاصر تحتاج ،إلى جانب تغطية الجوانب التاريخية والأثرية ، إلى ما هو أهم من ذلك، ويقصد ، تحديدا، الضوابط والثوابت التي يجب أن يتأسس عليها الفكر المعماري الإسلامي، وهذه الضوابط تستمد أساسا من الكتاب والسنة ... وبذلك تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها محاولة لتوضيح بعض ضوابط العمران والبنيان برؤية مستمدة أساسا من القرآن الكريم ...

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية